الإمبراطور الحزين

نابليون بونابرت

إعداد وتقديم

علا الخولي



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اسم الكتاب: نابليون بونابرت (الإمبراطور الحزين

اسم المؤلف: عُلا الخولي

رقم الإيداع :

الطبعة الأولى ٢٠١٢



تقديم

بين يديك عزيزي القارئ إصدار يتحدث عن شخصية من طراز خاص جدًا.. قائد عسكري فذ.. رجل اختلف المؤرخون في وصفه، منهم المنتقد الذي قال: إنه كان طاغية ومغتصبًا للسلطة ، وأنه السبب المباشر لفقدان فرنسا هيبتها ومكانتها بين الدول العظمى، وأنه كان متعصبًا لليهود وعدوًّا للمسيحية ، وبين محب لنابليون يراه رمزًا بارزًا للعبقرية الحربية والدهاء السياسي.

وهكذا حال تلك الشخصية التي اخترنا الحديث عنها من عدة زوايا إنسانية ، وإلقاء الضوء عليها ، لتكون نموذجًا للاعتبار والعظة، فهو حقق الكثير من النجاحات ، ومع ذلك لم يكن سعيدًا في حياته الشخصية، لذا قمنا بتسميته في هذا الإصدار بـ«الإمبراطور الحزين» .

ولعل سيرته الشخصية فيها الكثير من العبر والعظات التي تفيد الكثيرين منا.

إنها محاولة لإلقاء الضوء على شخصية ذلك القائد العسكري الفذ.

والله الموفق والمستعان

المؤلفة

يناير ١٩٧٧

نابليون كما يعرفه المؤرخون

نابليون بونابرت الأول (بالفرنسية Napoléon Bonaparte I؛ وبالإيطالية : Napoleone di Buonaparte) هو قائد عسكري وحاكم فرنسا وملك إيطاليا وإمبراطور الفرنسيين، عاش خلال أواخر القرن الثامن عشر وحتى أوائل عقد العشرينيات من القرن التاسع عشر. حكم فرنسا في أواخر القرن الثامن عشر بصفته قنصلاً عامًا، ثم بصفته إمبراطورًا في العقد الأول من القرن التاسع عشر، حيث كان لأعماله وتنظيماته تأثيرًا كبيرًا على السياسة الأوربية.

وُلد نابليون في جزيرة كورسيكا لأبوين ينتميان لطبقة أرستقراطية تعود بجذورها إلى إحدى عائلات إيطاليا القديمة النبيلة. ألحقه والده كارلو بونابرت، المعروف عند الفرنسيين باسم شارل بونابرت بمدرسة بريان العسكرية. ثم التحق بعد ذلك بمدرسة سان سير العسكرية الشهيرة، وفي المدرستين أظهر تفوقًا باهرًا على رفاقه، ليس فقط في العلوم العسكرية وإنما أيضًا في الآداب والتاريخ والجغرافيا. وخلال دراسته اطلع على روائع كتّاب القرن الثامن عشر في فرنسا وجلّهم، حيث كانوا من أصحاب ودعاة المبادئ الحرة. فقد عرف عن كثب مؤلفات فولتير ومونتسكيو وروسو، الذي كان أكثرهم أثرًا في تفكير الضابط الشاب.

أنهى دروسه الحربية وتخرّج في سنة ١٧٨٥م وعُين برتبة ملازم أول في سلاح المدفعية التابع للجيش الفرنسي الملكي. وفي سنة ١٧٩٥ أعطي له فرصة الظهور، ليظهر براعته لأول مرة في باريس نفسها حين ساهم في تعضيد حكومة الإدارة وفي القضاء على المظاهرات التي قام بها الملكيون، تساعدهم العناصر المحافظة والرجعية. ثم عاد في سنة ١٧٩٧ وأنقذ هذه

الحكومة من الوقوع تحت سيطرة العناصر الملكية الدستورية فبات منذ هذا التاريخ السند الفعلي لها وللدستور سنة ١٧٩٥. بزغ نجم بونابرت خلال عهد الجمهورية الفرنسية الأولى، عندما عهدت إليه حكومة الإدارة بقيادة حملتين عسكريتين موجهتين ضد ائتلاف الدول المنقضة على فرنسا.

وفي سنة ١٧٩٩، قام بعزل حكومة الإدارة وأنشأ بدلاً منها حكومة مؤلفة من ٣ قناصل، وتقلّد هو بنفسه منصب القنصل الأول؛ وبعد ٥ سنوات أعلنه مجلس الشيوخ الفرنسي إمبراطورًا. خاضت الإمبراطورية الفرنسية نزاعات عدّة خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر، عُرفت باسم الحروب النابليونية، ودخلت فيها جميع القوى العظمى في أوربا. أحرزت فرنسا انتصارات باهرة في ذلك العهد، على جميع الدول التي قاتلتها، وجعلت لنفسها مركزًا رئيسيًا في أوربا القارية، ومدّت أصابعها في شؤون جميع الدول الأوربية تقريبًا، حيث قام بونابرت بتوسيع نطاق التدخل الفرنسي في المسائل السياسية الأوربية عن طريق خلق تحالفات مع بعض الدول، وتنصيب بعض أقاربه وأصدقائه على عروش الدول الأخرى.

شكّل الغزو الفرنسي لروسيا سنة ١٨١٢م نقطة تحول في حظوظ بونابرت، حيث أصيب الجيش الفرنسي خلال الحملة بأضرار وخسائر بشرية ومادية جسيمة، لم تُمكن نابليون من النهوض به مرة أخرى بعد ذلك. وفي سنة ١٨١٣، هزمت قوّات الائتلاف السادس الجيش الفرنسي في معركة الأمم؛ وفي السنة اللاحقة اجتاحت هذه القوّات فرنسا ودخلت العاصمة باريس، وأجبرت نابليون على التنازل عن العرش، ونفوه إلى جزيرة ألبا. هرب بونابرت من منفاه بعد أقل من سنة، وعاد ليتربع على عرش فرنسا، وحاول مقاومة الحلفاء واستعادة مجده السابق، لكنهم هزموه شر هزيمة في معركة واترلو خلال شهر يونيو من عام ١٨١٥م. استسلم

بونابرت بعد ذلك للبريطانيين، الذين نفوه إلى جزيرة القديسة هيلانة، المستعمرة البريطانية، حيث أمضى السنوات الست الأخيرة من حياته.

أظهر تشريح جثة نابليون أن وفاته جاءت كنتيجة لإصابته بسرطان المعدة، على الرغم من أن كثيرًا من العلماء يقولون بأن الوفاة جاءت بسبب التسمم بالزرنيخ.

تُدرّس حملات نابليون العسكرية في العديد من المدارس الحربية حول العالم، وعلى الرغم من أن الآراء منقسمة حوله، حيث يراه معارضوه طاغية جبارًا، فإن كثيرًا من الناس يرونه رجل دولة وراعيًا للحضارة. إذ يُنسب إليه القانون المدني الفرنسي، المعروف باسم قانون نابليون، الذي وضع الأسس الإدارية والقضائية لمعظم دول أوربا الغربية، والدول التي خضعت للاستعمار والانتداب الفرنسي في العصور اللاحقة.



نشأته وتعليمه

وُلد نابليون في قصر آل بونابرت في بلدة أجاكسيو الواقعة بجزيرة كورسيكا، بتاريخ ١٥ أغسطس سنة ١٧٦٩، أي بعد عام من انتقال ملكية الجزيرة من جمهورية جنوة، إلى فرنسا. وهو الولد الثاني لأبويه من أصل ٨ أولاد. أطلق عليه والده اسم نابليوني دي بونابرته (بالإيطالية Napoleone di Buonaparte) بادئ الأمر، تيمنًا بعمه الذي قُتل وهو يُقاتل الفرنسيين دفاعًا عن بلاده، إلا أن نابليون نفسه فضّل لاحقًا أن يُلفظ اسمه كما يُلفظ بالفرنسية، أي ناپوليون بوناپغت Napoléon Bonaparte - وهذا ما جرت عليه العادة بين الناس. كذلك، كان اسمه يُلفظ نابوليون باللغة الكورسية.



كارلو بونابرت والد نابليون

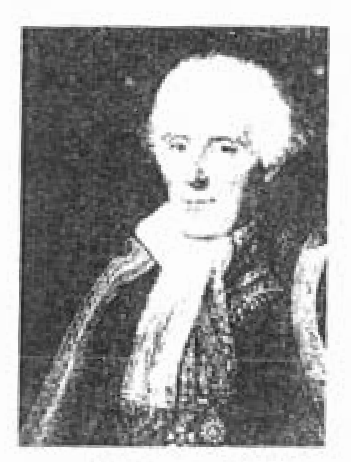
تنحدر أسرة بونابرت من جذور إيطالية نبيلة، وقد قدم أفرادها كورسيكا من منطقة ليكوريا في شبه الجزيرة الإيطالية خلال القرن السادس عشر. كان والد نابليون، واسمه كارلو بونابرت، يعمل محاميًا، وقد عُين لاحقًا ممثلاً لكورسيكا في بلاط الملك لويس السادس عشر في سنة ١٧٧٧. تُعتبر والدة بونابرت، ماريا يتيسيا رامولينو، الشخص الذي كان له أكبر تأثير على تكوين شخصيته، إذ يُعرف عنها أنها كانت صارمة وشديدة الحزم، بينما كان نابليون صبيًا جامحًا، فكانت والدته غالبًا ما تقيد تصرفاته وتفرض عليه ما ينبغي أن يقوم به وما يجب أن ينتهي عنه، مما دفع البعض إلى القول أن تربيته المنزلية بحد ذاتها كانت تربية عسكرية. كان لنابليون شقيق أكبر منه سنًا هو جوزيف؛ و٦ إخوة وأخوات أصغر منه سنًا، هم: لوسيان، إليسا، لويس، پولين، كارولين، وجيروم. عُمّد نابليون في كاتدرائية أجاكسيو في ٢١ أغسطس سنة ١٧٧١، أي قبل أن يبلغ عامه الثاني.

سمحت جذور أسرة بونابرت النبيلة، إضافةً إلى يسار أفرادها ومعرفتهم الشخصية بذوي المناصب السياسية العليا، سمحت لنابليون أن يخوض غمار ميدان العلم والثقافة بشكل لم يكن متاحًا لأي شخص كورسيكي عادي في ذلك الزمن. ففي شهر يناير من عام ١٧٧٩، أُلحق نابليون بمدرسة للاهوت واقعة في مدينة أوتون على البر الرئيسي الفرنسي، حيث تعلّم اللغة الفرنسية، وفي شهر مايو من نفس السنة، ألحقه والده بمدرسة بريان العسكرية لإعداد البحّارة. تكلّم نابليون الفرنسية بلهجة كورسية واضحة، واستمر يلفظ الكلمات الفرنسية بهذه الطريقة طيلة حياته، ولم ينطق باللفظ الفرنسي الصحيح على الإطلاق.

تعرّض نابليون للمضايقة والاستهزاء من قبل زملائه الفرنسيين في المدرسة، بسبب لهجته التي رأوها غريبة، ولهذا السبب تفادى الاختلاط معهم وإنشاء صداقات متينة، وكرّس كامل وقته للدراسة.

قال أحد أساتذة المدرسة في نابليون أنه دائمًا ما كان متفوقًا على زملائه في الرياضيات، وملمًّا بالتاريخ والجغرافيا، إن هذا الفتى لسوف يصبح بحارًا ممتازًا.

أُلحق نابليون بالمدرسة العسكرية الكبرى (بالفرنسية :École Militaire) في باريس، بعد أن تخرّج من مدرسة بريان سنة ١٧٨٤؛ وقد أدى هذا إلى القضاء على طموحه بأن يُصبح بحّارًا، الأمر الذي دفعه بأن يُفكر بالانضمام إلى البحرية الملكية البريطانية، لكنه عاد وعدل عن قراره، ودرس ليُصبح ضابط مدفعية، خصوصًا وأن والده كان قد توفي في تلك الفترة، الأمر الذي قلل من نسبة المصروف الذي كان يُرسل إليه، وأدّى لتراجع الوضع المادي للأسرة بشكل جعلهم غير قادرين على التكفل بأعباء ومصاريف الدراسة على أكمل وجه كما في السابق؛ فاضطر نابليون إلى إنهاء برنامجه الدراسي، الذي كان يمتد لسنتين في الأصل، خلال سنة واحدة فقط، أمتُحن نابليون قبل تخرجه على يد المفتش والعالم الشهير بيير سيمون لاپلاس، الذي قام بتعينه لاحقًا، بعد وصوله إلى السلطة، في مجلس الشيوخ الفرنسي.



بيير سيمون لاپلاس

بداياته

عُين نابليون عند تخرجه في شهر سبتمبر من سنة ١٧٨٥، ضابطًا برتبة ملازم ثان في فوج المدفعية، وخدم في إحدى الحاميات في مدينتيّ ڤالينس وأوكسون إلى ما بعد قيام الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩، على الرغم من أنه حصل خلال هذه الفترة على إجازة عسكرية دامت سنتين تقريبًا، أمضاها في التنقل بين باريس وكورسيكا. كان نابليون كورسيًا وطنيًا متطرفًا، وقد كتب إلى القائد الكورسيكي پاسكال پاولي في شهر مايو من عام ١٧٨٩ يقول: لقد وُلدت في العهد الذي كانت فيه الأمة تحتضر. ثلاثون ألف فرنسيّ لُفظوا على شواطئنا، وأغرقوا عرش الحريّة بأمواج من دماء. هذا ما كان عليه ذاك المشهد البغيض الذي كان أوّل ما وقعت عليه عيناي.

أمضى نابليون السنوات الأولى من الثورة في مسقط رأسه بجزيرة كورسيكا، عالقًا في مهب الريح بين التيارات الثلاثة المتصارعة: الملكيّون، الثوّار، والكورسيكيون الوطنيون. وخلال هذه الفترة انضم إلى نادي اليعاقبة، ورُقي إلى رُتبة مقدم، وترأس كتيبة من المتطوعين لمقاومة الجنود الفرنسيين الموالين للنظام الملكي. استطاع بونابرت أن يُقنع القادة العسكريين في باريس، بعد أن تجاوز فترة الإجازة الممنوحة له وقاد عصيانًا ضد فرقة من الجيش الفرنسي المعسكرة في كورسيكا، أن يُرقوه لرتبة نقيب، وذلك في شهر يوليو من سنة ١٧٩٢.

وبعد أن حصل نابليون على مراده، عاد إلى كورسيكا مرة أخرى، ليقع في نزاع مع القائد الوطني پاسكال پاولي، حيث أن الأخير كان قد قرر الانفصال عن فرنسا، ووضع خطة وهيأ العدة لعرقلة المشروع الفرنسي القاضي بإقامة حملة على جزيرة مادالينا السردينية، حيث كان بونابرت أحد قوّاد الحملة.

اضطر بونابرت أن يهجر الجزيرة وعائلته في شهر يونيو من عام ١٧٩٣ إلى البر الرئيسي الفرنسي، بسبب انفصال الجزيرة الفعلي عن الدولة الفرنسية.



حصار مدينة طولون

في شهر يوليو من سنة ١٧٩٣، قام نابليون بنشر كُتيب موال للنظام الجمهوري والدعاة إليه، يحمل عنوان العشاء في بوكير بالفرنسية Le Souper de Beaucaire ، فحاز على إعجاب وتقدير أوغسطين روبسبير، وهو الشقيق الأصغر للقائد الثوري ماكسمليان روبسبير، فقام بدعم بونابرت في جميع الخطوات اللاحقة التي اتخذها. كذلك حصل نابليون على دعم السياسي والدبلوماسي الفرنسي ذي الأصول الكورسية، أنطوان كريستوف ساليسيتي، فتم تعينه قائدًا لكتيبة مدفعية القوات الجمهورية عند حصار مدينة طولون، ذلك أن هذه المدينة كانت قد ثارت على حكومة الجمهورية، واحتلتها القوّات البريطانية، لذا كان لا بد للحكومة الفرنسية أن تخضعها من جديد لتفرض هيبتها ووجودها الفعلي أمام مواطنيها وأمام الأوربيين على حد سواء.

وضع نابليون خطة لاستعادة المدينة المفقودة، مضمونها الاستيلاء على الهضبة التي تكشف على المدينة، وتمركز الجنود والمدافع عليها وتوجيه نيرانهم نحو المرفأ، الأمر الذي يُجبر البريطانيين على سحب سفنهم. نُفذت هذه الخطة بنجاح باهر، حيث أخذت المدفعية الفرنسية تقصف المرفأ والسفن البريطانية الراسية وأحواضها، وأطلق الجنود الفرنسيون النار على كل جندي بريطاني وأي شخص عاون تلك الجنود، وأصيب نابليون عند الهجوم على المدينة بجراح في فخذه، لكنه قاتل حتى ظفرت الجنود الفرنسية بالنصر، وقد أدّت مهارة بونابرت الكبيرة في قيادة الجند خلال هذا الحصار

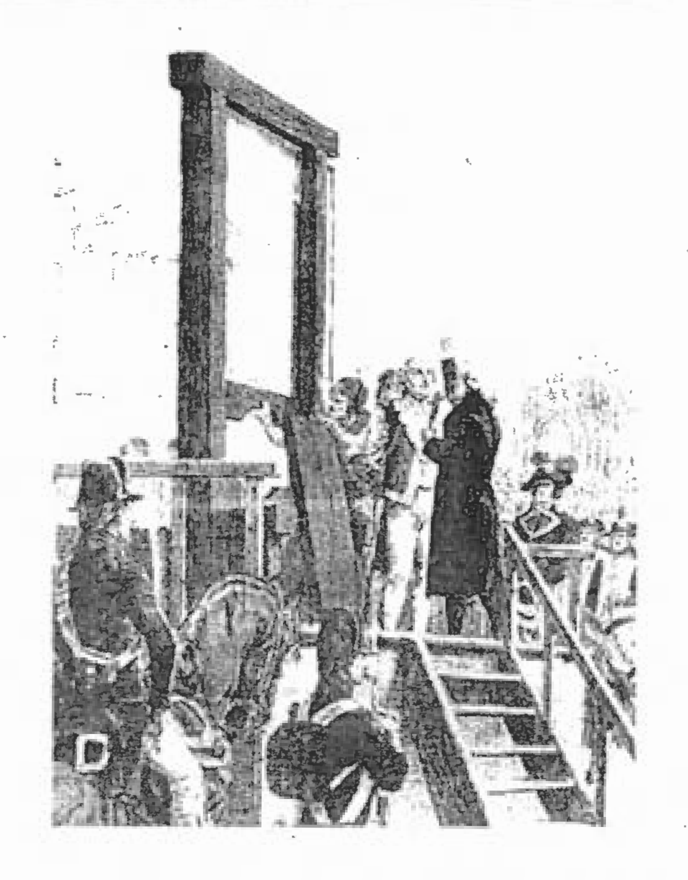
إلى ترقيته لرتبة عميد، وهو ما زال في الرابعة والعشرين من عمره. لفتت إنجازات بونابرت نظر المؤتمر الوطني، الذي كان يحكم فرنسا منذ إلغاء الملكية، فعُهد إليه بقيادة شعبة مدفعية الجيش الفرنسي المرابط على حدود إيطاليا.

وفي هذه الفترة خطب نابليون فتاة تُدعى ديزيريه كلاري، وهي شقيقة جولي كلاري، زوجة أخيه الأكبر جوزيف منذ سنة ١٧٩٤، وكان آل كلاري أسرة من التجار الأثرياء المرسيليين.

الثالث عشر من ڤاندميير:

بعد إعدام الملك لويس السادس عشر في مطلع سنة ١٧٩٣ بسبب اتهامه بالخيانة العظمى، وجد المؤتمر الوطني أن حالة البلاد تقتضي وضع السلطة بيد هيئة قليلة العدد تستطيع أن تقرر وتنفذ بسرعة.

لذلك انتخب لجنة من تسعة أعضاء أطلق عليها اسم لجنة الأمن العام ومنحها صلاحيات ديكتاتورية واسعة لتحافظ على الأمن في الداخل ولتردّ خطر الغزو من الخارج. وكان أعضاء هذه اللجنة من المتطرفين المعروفين أيضًا بالجبليين، فباشروا حكمهم بالبطش والإرهاب، ولمّا عارضهم المعتدلون طردوهم من المؤتمر الوطني وسجنوهم ونكّلوا بهم. ولمّا حاول أنصار المعتدلين في مناطق ليون ومرسيليا وبوردو وغيرها أن يثوروا على حكومة الإرهاب، أخضع الجيش تلك الثورة بمنتهى القسوة، وتشكلت محاكم خاصة تدعى محاكم الثورة لمحاكمة المتهمين، فقضت تلك المحاكم بالإعدام على عشرين ألفًا تقريبًا من النبلاء ورجال الدين والزعماء وزعماء الثورة السابقين والعلماء والرجال والنساء البارزين، مثل الملكة ماري أنطوانيت وغيرها.



إعدام الملك لويس السادس عشر بالمقصلة



الملكة ماري أنطوانيت

وكـان بطـل عهـد الإرهـاب ماكـسمليان روبـسبير، يعاونـه شـقيقه أوغسطين، وأخيرًا خشي أعضاء المؤتمر الوطني على أنفسهم من بطش روبسبير وقرروا أن يتخلصوا منه، فدبروا انقلابًا ضده وقبضوا عليه وقطعوا رأسه في ٢٨ يوليو سنة ١٧٩٤.



ماكسمليان روبسبير



إعدام ماكسمليان روبسبير

وبإعدام روبسبير فقد نابليون أحد حماته وداعميه، فقُبض عليه وتقرر وضعه تحت الإقامة الجبرية في شهر أغسطس من سنة ١٧٩٤ لعلاقته الوثيقة بالأخوين، وعلى الرغم من أنه أعيد إطلاق سراحه بعد ١٠ أيام فقط، إلا أنه لم يُسمح له بالعودة مباشرةً إلى الخدمة في الجيش، وبقي مدرجًا على قائمة المشتبه فيهم.

وفي شهر أبريل من سنة ١٧٩٥، نُقل نابليون إلى جيش الغرب الذي كان يخوض حربًا أهلية في إقليم ڤونديه الواقع بغرب فرنسا على ساحل المحيط الأطلسي، ضد الموالين للنظام الملكي ومعارضي الثورة. عُين نابليون قائدًا عامًا لإحدى فرق المشاة، ولمّا كان ذلك يُعتبر إنزالاً لرتبته العسكرية، فقد ادعى المرض ليتفادى تعيينه على رأس أي فرقة، فتمّ نقله مرة أخرى إلى ديوان الطبوغرافيا التابع للجنة الأمن العام، وقد سعى عبثًا أن يُنقل إلى الأستانة، عاصمة الدولة العثمانية، ليعرض خدماته على السلطان العثماني.

وفي هذه الفترة كتب بونابرت رواية رومانسية عنوانها كليسون ويوجيني بالفرنسية Clisson et Eugénie : ، وهي تتحدث عن جندي وعشيقته، في تناظر واضح بينها وبين علاقة نابليون بخطيبته ديزيريه.

عُزل نابليون من منصبه كعميد في ١٥ سبتمبر، بسبب رفضه المشاركة في الحملة على إقليم ڤونديه، فساء وضعه المادي عمّا كان عليه، وضاقت آفاق مهنته.



وفي الثالث من أكتوبر، أعلن الملكيون في باريس العصيان على المؤتمر الوطني، بعد أن تم استبعادهم من الحكومة الجديدة التي خلفت المؤتمر، وهي حكومة الإدارة، وقد سُميت هذه الحركة باسم الحركة الترميدورية تيمنًا بشهر تيرميدور وهو إحدى أشهر السنة وفق التقويم الفرنسي في ذلك الزمن. كان أحد قوّاد الحركة، واسمه بولس برّاس، قد تابع إنجاز بونابرت العسكري في مدينة طولون، فمنحه قيادة القوّات المخصصة للدفاع عن المؤتمر والمرابطة حول قصر التويلري. وكان بونابرت قد شهد مجزرة حرس الملك السويسري هناك قبل ٣ سنوات، عندما قُتل ٦٠٠ حارس من أصل ٩٥٠ أثناء دفاعهم عن القصر ضد الثوّار، وأدرك أن الوسيلة الفضلى للدفاع عنه هي باستخدام المدفعية. فأمر ضابطًا شابًا من سلاح الفرسان، يُدعى يواقيم مراد، بأن يُحضر ما تقع عليه يداه من المدافع الضخمة، حيث استخدمها في قصف المهاجمين وردهم على أعقابهم في ٥ من أكتوبر سنة ١٧٩٥، الموافق في ١٣ ڤاندمير من السنة الرابعة، وفق التقويم الفرنسي. قُتل في الهجوم ألف وأربعمائة ملكيّ، ونجا من تبقى منهم بحياته.

يقول المؤرخ الإسكتلندي من القرن التاسع عشر، طوماس كارليل، في كتابه تاريخ الثورة الفرنسية: إن نابليون طهّر الشوارع في ذلك اليوم بنفحة من مدفع.

أدّت هزيمة الملكيين على يديّ نابليون إلى القضاء على التهديد الذي كان يقلق راحة المؤتمر الوطني، وحصول بونابرت على شهرة مفاجئة ومكافئة مالية ضخمة مكنته من النهوض بنفسه مجددًا، وعلى رعاية ودعم حكومة الإدارة حديثة النشأة؛ كذلك تزوّج الضابط يواقيم مراد بأصغر أخوات نابليون، وهي كارولين، وعينه الأخير قائدًا عامًا في الجيش. رُقي نابليون إلى رتبة قائد الداخلية وعُهد إليه مجددًا بقيادة الجيش الفرنسي المرابط على حدود إيطاليا.

وخلال أسابيع من هذه الحادثة، تعلّق بونابرت بأرملة أحد قادة الثورة، المدعوة جوزفين من آل بوارنيه، وتزوجها بتاريخ ٩ من مارس سنة ١٧٩٦ بعد أن فسخ خطوبته بديزيرية كلاري.



جوزفين

الحملة الإيطالية الأولى

بعد يومين من زواجه، سافر نابليون من باريس إلى شمال إيطاليا وقاد الجيش الفرنسي المرابط هناك في غزو ناجح للأراضي الإيطالية: بعد أن كان القتال قد تجدد بين فرنسا والنمسا المحتلة شمال شبه الجزيرة الإيطالية؛ فأحرز نابليون انتصارًا باهرًا على النمساويين في معركة لودي وطردهم من منطقة لومبارديا، لكنه عاد وهُزم في معركة كالديرو على يد القوات النمساوية التعزيزية بقيادة المشير جوزيف ألفنسكي، إلا أن بونابرت عاد وأمسك بزمام الأمور وحقق نصرًا حاسمًا على النمساويين في معركة جسر أركول، وتابع زحفه ليُخضع الدولة البابوية.

عارض نابليون طلب الملحدين من أعضاء حكومة الإدارة، الذين طالبوه بدخول مدينة روما وخلع البابا، قائلاً :إن هذا الأمر سيؤدي إلى وجود حالة فراغ في السلطة قد تستغلها مملكة نابولي لتفرض سيطرتها على تلك الناحية من شبه الجزيرة الإيطالية. وعوضًا عن ذلك، قام نابليون في شهر مارس من سنة ١٧٩٧، بالتوجه على رأس جيشه إلى الأراضي النمساوية نفسها، حيث فرض على النمساويين إبرام معاهدة سلام مع فرنسا، فاضطروا إلى التسليم وتوقيع معاهدة يوبن التي اعترفت فيها النمسا بالاستيلاء على البلاد المنخفضة النمساوية وضفة نهر الراين اليسرى ولومبارديا في شمالي إيطاليا، كذلك وُضع بند سري في الاتفاقية تعهدت فيه فرنسا بضم جمهورية البندقية إلى النمسا. بعد ذلك زحف بونابرت على البندقية وأخضعها منهيًا استقلالها الذي دام ١١٠٠ سنة؛ وسمح للجنود الفرنسيين أن يغنموا وينهبوا ما تيسّر لهم من النفائس، مثل تماثيل أفراس القديس مرقس.

كان للأساليب التي اتبعها نابليون، إضافة لتطبيقه الأفكار العسكرية التقليدية على أرض الواقع، أثرًا حاسمًا على انتصاراته، ومثال ذلك تحويله سلاح المدفعية إلى سلاح متنقل يُسافر مع جيشه من موقع لآخر، الأمر الذي سهل استخدامه ضد الجنود المشاة أكثر من مرة. وقد قال نابليون عن تنظيماته العسكرية في الحملة خلال إحدى الأوقات: شهدت ستون معركة ولم أتعلم شيئًا غير الذي أيقنته في المعركة الأولى؛ كمثل يوليوس قيصر الذي خاض معركته الأخيرة كما خاض الأولى.

كان نابليون ماهرًا في فن الخداع والتجسس، حيث استطاع الفوز في عدد من المعارك بفضل اختياره لمواقع مخفية نشر فيها جنده، وتركيزه أعدادهم على الجوانب الضعيفة من جيش العدو. وكان يُعرف عن نابليون أنه في حال لم يستطع تطبيق إستراتيجية التطويق المفضلة لديه، فإنه كان يجعل جنوده يتخذون الموقع الوسطي ويُهاجمون الفرقتين العسكريتين على

يمينهم ويسارهم كل على جانبها، ثم يستدير ليُطوق إحداها ويُقاتلها حتى تنسحب من الميدان، ثم يتحرك لقتال الأخرى.

أسر الجيش الفرنسي خلال الحملة الإيطالية ١٥٠,٠٠٠ جندي، وغنم ٥٤٠ مدفعًا، و١٧٠ راية.

خاض الجيش الفرنسي خلال هذه الحملة ٦٧ معركة، وفاز بثماني عشرة معركة مدفعية، بفضل المدافع الحديثة التي حازها وبفضل تنظيمات بونابرت وإستراتيجياته.

أصبح لنابليون تأثير كبير على السياسة الفرنسية خلال فترة الحملة الإيطالية الأولى، فقد كان نشر صحيفتين إخباريتين مخصصتين للجنود من حيث الظاهر؛ لكنهما كانتا متداولتين بشكل واسع بين الشعب الفرنسي ولهما تأثير على الرأي العام؛ وفي شهر مايو من عام ١٧٩٧ أسس صحيفة ثالثة حملت اسم مجلة بونابرت وفضائل الإنسان بالفرنسية : Le Journal de Bonaparte et des hommes vertueux)، وقام بنشرها في مدينة باريس.

وفي منتصف سنة ١٧٩٧ جرت انتخابات نيابية حصل الملكيون بموجبها على النسبة الأعلى من الأصوات، الأمر الذي أدى إلى تمتعهم بمزيد من السلطات، وأثار جزع أعضاء حكومة الإدارة.

هاجم الملكيون بونابرت معترضين على نهبه المدن الإيطالية، قائلين: إنه تخطى صلاحياته وتجاوزها بشكل كبير عند قتاله النمساويين وإبرامه لمعاهدات معهم. فما كان من بونابرت إلا أن أرسل اللواء بيير أوجيرو إلى باريس ليقود انقلابًا ويُطهر المدينة من الملكيين، وذلك بتاريخ ١٨ سبتمبر، الموافق في ١٥ فروكتيدور من التقويم الفرنسي. أدى هذا الانقلاب إلى إعادة الجمهوريين إلى الحكم واستعادتهم لسلطتهم المفقودة، إلا أنهم كانوا قد أصبحوا معتمدين على نابليون في كل صغيرة وكبيرة، فكان وكأنه قد أصبح فعليًا الرجل الأول في فرنسا، فانصرف إلى إبرام معاهدة سلام مع

النمساويين. أسفرت مفاوضات نابليون مع النمسا إلى إبرام معاهدة كمبوفورميو التي أقرت فيها الأخيرة بالتنازل عن المناطق التي دخلها الفرنسيون لصالح فرنسا. عاد بونابرت إلى باريس في شهر ديسمبر واستقبله الشعب الفرنسي استقبال الفاتحين، بعد أن حاز على شهرة وصيت أوسع من ذاك الخاص بأعضاء حكومة الإدارة.

وفي هذه الفترة التقى بونابرت بوزير خارجية فرنسا الجديد شارل موريس آل تاليران الذي أبقاه نابليون في منصبه عندما أصبح إمبراطورا لاحقًا، وأخذا يُعدان العدة لغزو بريطانيا.



شارل موريس آل تاليران



حملة نابليون على مصر

قرر بونابرت بعد شهرين من التخطيط، أن البحرية الفرنسية لا تتمتع بالقوة الكافية التي تمكنها من مواجهة البحرية الملكية البريطانية في القناة الإنجليزية والتغلب عليها. لذا عرض على حكومة الإدارة القيام بحملة عسكرية على مصر واحتلالها للسيطرة على طريق بريطانيا إلى الهند والقضاء على مصالحها التجارية فيها.

وكان بونابرت يأمل بأن يضع لفرنسا موطئ قدم في الشرق الأوسط ويُظهر للسكان ذوي الأغلبية الإسلامية أنه صديق للخلافة وحاميًا للإسلام، الأمر الذي من شأنه أن يؤثر في نفوس المسلمين حول العالم وبشكل خاص مسلمي الهند الخاضعين للملكة المتحدة، وسلطانهم فاتح علي تيبو، عدو البريطانيين اللدود، مما يُسهل على نابليون التقرب إليه والتدخل في الهند وضرب مصالح بريطانيا فيها. وكان نابليون قد أكّد لأعضاء حكومة الإدارة أنه ما أن ينتهي من فتح مصر سوف يُسارع إلى إبرام علاقات مع الأمراء الهنود، وسوف ينجح، بمساعدتهم، على ضرب البريطانيين في أهم مستعمراتهم. وقد قال تاليران في تقرير له صدر في شهر فبراير من سنة ١٧٩٨، موجه إلى حكومة الإدارة: ما أن نفتح مصر وننتهي من تحصينها، سنرسل جيشًا قوامه ١٥,٠٠٠ رجل من السويس إلى الهند، للانضمام إلى قوات السلطان تيبو، ومعًا سنطرد الإنجليز من الهند. وافقت حكومة الإدارة على القيام بهذه الحملة، على الرغم من أنها لم ترتاح لأبعادها ولا لتكلفتها، وذلك كي تُبعد بونابرت الذي غدا قائدًا مشهورًا عن مركز القرار في فرنسا.

انتُخب نابليون في شهر مايو من سنة ١٧٩٨ عضوًا في الأكاديمية الفرنسية للعلوم، وانضم إلى حملته المصرية ما مجموعه ١٦٧ عالمًا من علماء الرياضيات، البيئة، الكيمياء، والجيوديسيا؛ وقد حقق هؤلاء عدد من الاكتشافات في مصر لعل أبرزها هو اكتشاف حجر رشيد، ونُشرت اكتشافاتهم في كتاب حمل عنوان وصف مصر بالفرنسية : Description de l'Égypte وذلك في سنة ١٨٠٩.

وفي طريقه إلى مصر، عرج نابليون على جزيرة مالطا بتاريخ ٩ من يونيو سنة ١٧٩٨، وكانت هذه الجزيرة خاضعة لفرسان القديس يوحنا ذوي الأصول الفرنسية والبالغ عددهم ٢٠٠ فارس، منذ عهد الحروب الصليبية، وكان هؤلاء الفرسان ناقمين على قائدهم المدعو فرديناند زو. بولهايم بما أنه كان بروسي الجنسية وقد خلف قائدًا فرنسيًا، ورفضوا قتال الفرنسيين أشد الرفض، معتبريهم إخوانهم من شحمهم ولحمهم .استسلم فرديناند للجيش الفرنسي بعد مقاومة رمزية، وكان من نتيجة ذلك أن اكتسب نابليون مرفأً وقاعدة بحرية مهمة في البحر المتوسط، مقابل خسارته ٣ رجال فقط.

استطاع بونابرت ورجاله الإفلات من سفن البحرية الملكية البريطانية التي تعقبتهم منذ مغادرة فرنسا، ونزلوا أرض مصر في مدينة الإسكندرية في ١ يوليو من عام ١٧٩٨، ووجّه نابليون في اليوم ذاته نداءً إلى الشعب المصري، وأصدرت الحملة نداءً إلى الشعب بالاستكانة والتعاون زاعمةً أن نابليون قد اعتنق الإسلام وأصبح صديقًا وحاميًا للإسلام. استولى نابليون على أغنى إقليم في الدولة العثمانية، وطبقًا للدعاية الحربية أدعى أنه صديقٌ للسلطان العثماني وادعى أيضًا أنه قدم إلى مصر للاقتصاص من المماليك لا غير، باعتبارهم أعداء السلطان، وأعداء الشعب المصري .وهذه رسالة

نابليون بونابرت إلى شعب مصر:

بسم الله الرحمن الرحيم، لا إله إلا الله وحده لا شريك له في ملكه... أيها المشايخ والأئمة...

قولوا لأمتكم أن الفرنساوية هم أيضًا مسلمون مخلصون وإثبات ذلك أنهم قد نزلوا في روما الكبرى وخرّبوا فيها كرسي البابا الذي كان دائمًا يحّث النصارى على محاربة الإسلام، ثم قصدوا جزيرة مالطا وطردوا منها فرسان القديس يوحنا الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين، ومع ذلك فإن الفرنساوية في كل وقت من الأوقات صاروا محبين مخلصين لحضرة السلطان العثماني..أدام الله ملكه...

أدام الله إجلال السلطان العثماني

أدام الله إجلال العسكر الفرنساوي

لعن الله المماليك

وأصلح حال الأمة المصرية.

تغلّب الجيش الفرنسي بسهولة على المماليك، حكّام مصر القدامى، الذين هبّوا لقتال الفرنسيين بمجرد وصولهم للبلاد. وقد ساعد انتصار بونابرت الأول على المماليك في فتح المجال أمامه على التخطيط لمعركته التالية معهم، التي وقعت بعد أسبوع من المعركة الأولى بالقرب من مدينة القاهرة، على بعد ٦ كيلومترات من أهرام الجيزة، وعُرفت باسم معركة الأهرام. حقق بونابرت انتصارًا باهرًا على المماليك في هذه المعركة، على الرغم من أنهم فاقوا جيشه عددًا، فقد وصل عدد الخيالة المماليك إلى ٦٠,٠٠٠ فارس، بينما بلغ عدد الخيالة الفرنسيين ٢٠,٠٠٠، لكن القائد الفرنسي لجأ مرة أخرى إلى أساليبه الحربية الباهرة، فجعل الجنود الفرنسية تتخذ تشكيلات مربعة في وسطها كل العتاد اللازم، فكان الفرنسيون

يطلقون النار على المماليك من جميع الجهات دون توقف، ولم يستطع هؤلاء قتال الفرنسيين بطريقة فعّالة لقدم أساليب قتالهم مقارنة بالأساليب الأوربية الحديثة. أسفرت المعركة عن مقتل ٣٠٠ جندي فرنسي وحوالي ٦,٠٠٠ مصري.

رأت الدولة العثمانية في احتلال بونابرت مصر اعتداءً عليها، ووقفت الإمبراطورية البريطانية والإمبراطورية الروسية إلى جانب الدولة العثمانية، وعرضوا على الباب العالي المساعدة العسكرية، برًا وبحرًا لإخراج الفرنسيين من مصر.

ونادى السلطان في فرمان أصدره كل المسلمين للدفاع عن مهد الإسلام ضد الحملة الفرنسية، وقد أعلن البيان للشعب أن الفرنسيين الخالعين لأي إيمان، المحرفين لكل ما هو مقدس في الدين، وفي البيانات الحكومية لأمتهم، أعلنوا الحرب على الإسلام من أجل القضاء على المؤمنين، ما عدا النساء والأطفال، لتحويل هؤلاء إلى مشركين، إلا أن هذا الفرمان لم يكن له التأثير المنتظر في نفس بونابرت، فقد اعتمد عند دخوله مصر على تعب الشعب من جور المماليك، وعلى انشغال كل شبه الجزيرة العربية بحرب الوهابيين، وعلى عدم مبالاة العديد من سكان بلاد الشام بسبب إرهاق الولاة العثمانيين لهم منذ حوالي القرن من الزمن.

وأجاب بونابرت على الكلام الذي صبه عليه السلطان العثماني بأن جعل من الصيت الذي أطلقه عند دخوله البلاد، أي اعتناقه الإسلام، واقعًا أمام أعين الناس، وذلك كي يتبرأ من كل الآثار التي خلفتها الحروب الصليبية في نفوس الشعب، وليقنع المسلمين بلاعدائيته تجاه دينهم تظاهر في القاهرة بإسلامه مؤديًا الفرائض الدينية.

أصبح نابليون بونابرت بهذا حاكمًا مسلمًا اسمه «بونابردي باشا»، وكان يطلق عليه المسلمون اسم عليّ «نابليون بونابرت»، وكان يتجوّل وهو

مرتدي الملابس الشرقية والعمامة والجلباب. وكان يتردد على المسجد في أيام الجمعة ويسهم بالشعائر الدينية التقليدية مثل الصلاة، وكوّن نابليون ديوانًا استشاريًا مؤلفًا من المشايخ والعلماء المسلمين مكونًا من ١١ عالمًا ويرأسه الشيخ عبد الله الشرقاوي.

خاب أمل الباب العالي في أن يجعل من الحرب مع فرنسا حربًا وطنية، فاضطر بالتالي مع باشاواته أن يخوضوها بقواهم الخاصة تُساندهم القوى الحليفة الأوربية.

وبتاريخ ٢٥ من يوليو، قام العثمانيون بإنزال بري في مرفأ أبي قير وقاتلوا الجنود الفرنسية قتالاً شديدًا، لكنهم لم يقدروا عليها، فانتصرت الأخيرة انتصارًا ساحقًا.

وبتاريخ ١ من أغسطس من نفس العام، كان الأسطول البريطاني بقيادة القبطان هوراشيو نيلسون، قد أسر أو دمّر جميع السفن الفرنسية، عدا سفينتين، في معركة أبي قير البحرية، فأُحبط بهذا مشروع بونابرت الهادف إلى إقامة مركز فرنسي ممتاز في حوض البحر المتوسط، إلا أن جيشه كان قد نجح في بسط السلطة الفرنسية على مصر، على الرغم من تعرضه لانتفاضات ومقاومة مستمرة من قبل السكان.

وما لبث أن انضم الأسطول العثماني والروسي إلى جانب الأسطول البريطاني لقتال الفرنسيين وإخراجهم من مصر، ولّما رأى بونابرت تجمع الأساطيل الحليفة في البحر المتوسط، عزم على مفاجأة الدولة العثمانية باحتلال بلاد الشام قبل أن يستكمل العثمانيون استعداداتهم، فقام في أوائل سنة ١٧٩٩ بتحريك ١٣,٠٠٠ جندي من جيشه قاصداً سواحل الشام، فاحتل العريش وغزة ويافا والرملة وحيفا ووصل إلى صور في جنوب

لبنان.

كان الهجوم الفرنسي على مدينة يافا بالذات أكثر ضراوةً من غيره، فقد اكتشف نابليون بعد استسلام المدينة أن كثيرًا من الذين كانوا يدافعون عنها هم في واقع الأمر أسرى حرب سابقون يعملون مقابل إطلاق سراحهم لاحقًا، فأمر بإعدام جميع أفراد الحامية و١٤٠٠ أسير حرب من الذين ساهموا بالدفاع عن المدينة، باستخدام الحراب أو عن طريق الإغراق، وذلك كي يوفر رصاص البنادق،وسمح لجنوده بنهب المدينة، فارتكبت الجنود الفرنسية عدّة فظائع طيلة ٣ أيام، حيث نهبت وقتلت الكثير من السكان.

ومن بين جميع مدن الساحل الشامي الجنوبي، وحدها مدينة عكا صمدت في وجه بونابرت، فلم يستطع الجنود الفرنسيون اقتحام حصونها لمناعتها، كما كان واليها أحمد باشا الجزار قد زوّد حاميتها بالمدافع، وكان الأسطول الإنجليزي بقيادة أمير البحر سدني سميث يُساعد رجال الجزار عندما تساوت قوى الفريقين، ووقف كل من بونابرت والجزار يتربص بالآخر، التفت كل منهما إلى أمير لبنان بشير الثاني الشهابي، فوجدا فيه مرجّحًا لكفة من يُساعده فيما يُقدمه الأمير من رجال ومؤن، فكتب كل منهما إليه: أما بونابرت فقد طلب إليه المساعدة ووعده بتوسيع حدود إمارته وتخليص بلاد الشام من حكم الجزار المتقلّب الذي دائما ما يخلف بوعوده ويغدر بمن حوله؛ وأما الجزار فأصرّ على الأمير أن يمده بجيش ليقاوم الحملة الفرنسية، ووعده مقابل ذلك بإعادة مدينة بيروت إلى إمارته، لكن بشيراً اتخذ موقفًا محايداً من كلا الطرفين، فسكت عن الرد على رسالة بونابرت، وتجاهل المؤن التي زود بعض الأهالي بها الجيش الفرنسي، وردّ على الجزار يعتذر عن تقاعسه في نجدته، زاعما أن أهل البلاد امتنعوا عن طاعته بعد أن بلغهم أن الجزار عزله عن الحكم، وولّى مكانه أبناء سلفه،

الأمير يوسف الشهابي.

إزاء مناعة حصون عكا، ووصول النجدات العثمانية إليها، واشتراك الأسطول البريطاني في مساعدة العثمانيين، وشدة وطأة وباء الملاريا ثم الطاعون الذين فتكا بالجنود الفرنسيين فتكًا ذريعًا، اضطر بونابرت إلى رفع الحصار عن عكا والتراجع إلى مصر في شهر مايو من سنة ١٧٩٩. ولكي يسرّع من تحرك الجيش، أمر بأن يُدس السم لكل جندي مُصاب بالمرض كي لا يكون هناك ما يُلكأ المسيرة. وقد قال مؤيدو نابليون: إن هذه الخطوة كانت ضرورية نظرًا للمناوشات المستمرة التي قامت بها القوات العثمانية، وأنه بأي حال كان قد ترك الجنود المصابين على قيد الحياة لكان العثمانيون قتلوهم بعد أن عذبوهم عذابًا شديدًا.

العودة إلى فرنسا:

بقي نابليون على اطلاع بالشؤون والأوضاع الأوربية طيلة فترة وجوده في مصر، وذلك عن طريق مطالعته للصحف والبرقيات الفرنسية التي كان يتم توصيلها إليه بشكل متقطع. فاكتشف أن الدول الأوربية تألبت على فرنسا، فهزمتها في حرب الائتلاف الثانية واستردت منها ما كان قد كسبه. وبتاريخ ٢٤ أغسطس سنة ١٧٩٩، اغتنم بونابرت فرصة الانسحاب المؤقت للسفن البريطانية من على سواحل فرنسا وأبحر مسرعًا إليها، على الرغم من عدم تلقيه أية أوامر من باريس بالعودة، وترك للواء جون بابتيست كليبر قيادة القوة الفرنسية. كانت حكومة الإدارة في واقع الأمر قد أرسلت إلى بونابرت تطلب منه الرجوع إلى فرنسا لصد أي هجوم أو غزو محتمل للبلاد، لكنه لم يعلم بذلك نظرًا لعدم وصول الرسالة إليه بسبب ضعف وسائل النقل والمواصلات في ذلك الزمن.



حكم فرنسا:

كان الوضع العام في فرنسا قد تحسن بعض الشيء عند وصول نابليون في شهر أكتوبر، ذلك أن الجمهورية كانت قد حققت سلسلة من الانتصارات على بعض الدول المجاورة. إلا أن ذلك تركها مفلسة، وكانت حكومة الإدارة قد أصبحت ضعيفة منقسمة على نفسها، مكروهة من قبل الشعب. وما أن علم أعضاء الحكومة بعودة بونابرت حتى اجتمعوا لينظروا في توقيع العقوبة الملائمة عليه نظرًا لتخلفه عن تلبية نداء الواجب، عندما أرسلوا إليه بالرسالة التي طالبوه فيها بالعودة، إلا أن الحكومة كانت قد بلغت من الضعف حدًا لم تستطع معه فرض أي عقوبة على قائد بحجم بونابرت.

عرض أحد أعضاء حكومة الإدارة، واسمه عمانوئيل جوزيف سيس، على نابليون أن يدعمه في انقلاب للإطاحة بالحكومة الدستورية وإقامة حكومة جديدة بدلاً منها، بعد أن أصبحت الأولى شديدة الوهن ولا تقوى على النظر بشؤون البلاد والعباد. شملت قائمة رؤساء هذه الخطة: لوسيان بونابرت شقيق نابليون؛ رئيس مجلس الخمسمائة روجيه دوكو؛ جوزيف فوشيه وهو عضو آخر من أعضاء حكومة الإدارة؛ وتاليران. وفي التاسع من نوفمبر، الموافق في الثامن عشر من شهر برومير-بحسب التقويم الفرنسي-كُلّف نابليون بحماية وضمان سلامة المستشارين التشريعيين، الذين نقلوا مركز أعمالهم إلى قصر القديس كلو (بالفرنسية: Château de Saint-Cloud) الواقع في غرب باريس، بعد أن سرت إشاعة مفادها أن اليعاقبة يعقدون العزم على القيام بثورة والإطاحة بالمستشارين قبل أن تبصر الحكومة الجديدة النور. وفي اليوم التالي، شعر أعضاء حكومة الإدارة أنهم كادوا أن يتعرضوا لانقلاب في اليوم الفائت، فاستنكروا هذا الفعل أشد الاستنكار، فما كان من نابليون إلا أن قاد بضعة جنود وعزل أعضاء

الحكومة بالقوة واستولى على الحكم وجعل مكان الحكومة القديمة حكومة جديدة مكونة من ثلاثة قناصل: سيس، دوكو، وهو نفسه. وقد أيّد الشعب الفرنسي هذا التدبير.

عهد القنصلية:

كان سيس يعتقد بأنه سيُسيطر على الحكومة الجديدة بمنتهى السهولة، نظرًا لأنه هو من كان صاحب فكرة الانقلاب منذ البداية، إلا أن نابليون كان أكثر دهاءً وأشد مكرًا منه، حيث قام بصياغة العديد من مواد الدستور، الذي عُرف بدستور السنة الثامنة، بنفسه بشكل يضمن انتخابه لمنصب القنصل الأول، وبعد إجراء الانتخابات فاز نابليون بالمنصب سالف الذكر، فانتقل للسكن في قصر التويلري الذي اتخذ منه ملوك فرنسا مقرًا لهم في السابق. وبهذا أصبح بونابرت رسميًا أقوى شخص في فرنسا.

بعد أن تولى نابليون السلطة وأصبح قنصلاً، اهتم بدفع الخطر عن فرنسا، فقد كانت الدول الأوربية، وخصوصًا النمسا، استرجعت أثناء وجوده في مصر جميع الأراضي تقريبًا، التي كان قد غنمها منها. فقام نابليون سنة ١٨٠٠، بتجهيز جيش قوي في السر واجتاز به جبال الألب فوصل إلى شمالي إيطاليا. بدأت الحملة بشكل سيئ بالنسبة للفرنسيين بعد أن ارتكب بونابرت بضعة أخطاء إستراتيجية؛ فقد تُركت إحدى الفرق العسكرية مُحاصرة في مدينة جنوة، لكنها استطاعت الصمود في وجه النمساويين وإشغالهم والاستيلاء على بعض مؤنهم. وقد سمح هذا الأمر، إضافةً للقوات الإضافية التي أتى بها اللواء الفرنسي «لويس دوزيه» في الوقت الملائم، سمح لنابليون أن يتفادى الهزيمة الوشيكة ويحقق نصراً كبيراً على النمساويين في معركة مرنكو. ترأس جوزيف، شقيق نابليون، مفاوضات السلام مع النمسا في مدينة لونفيل، وفي أثناء إجراء المفاوضات

أرسل إلى نابليون يقول بأن النمسا، تدعمها بريطانيا، لا تعترف بسلطان فرنسا على الأراضي التي اكتسبتها حديثًا. وفيما ازدادت حدّة المفاوضات، أصدر نابليون أوامره إلى اللواء جون مورو بأن يوجه ضربةً جديدة إلى النمسا، ففعل الأخير ما أُمر به وقاد فرنسا إلى النصر في معركة هونليندن، فاضطرت النمسا أن توقع على معاهدة السلام في شهر فبراير من سنة ١٨٠١، وأن تعيد إلى فرنسا ما كسبته منها إلى جانب بعض الأراضي الجديدة، وأن توافق على التدابير التي اتخذتها فرنسا من أجل تأمين سلامتها.

السلام المؤقت في أوربا:

وبعد انتهاء هذه الحرب مع النمسا، أقام بونابرت قاعدةً عسكرية في مدينة بولونيا البحرية الواقعة على ساحل بحر المانش، استعدادًا لغزو بريطانيا، إلا أن كلتا الدولتين كانتا قد أنهكتا إنهاكًا شديدًا من الناحية البشرية والاقتصادية، بفعل الحروب المستمرة، فأبرمتا معاهدة أميان في شهر أكتوبر من عام ١٨٠١ وأكملتا التصديق على بنودها في شهر مارس من سنة ١٨٠٢؛ وتضمنت هذه المعاهدة انسحاب القوات البريطانية من معظم المستعمرات التي احتلتها مؤخرًا في حوض البحر المتوسط خصوصًا. كانت هذه الفترة من السلم من أخصب أيام نابليون وأنفعها لفرنسا وللحضارة العالمية، لكنها بقيت غير مستقرة ولم تدم طويلاً؛ إذ أن بريطانيا لم تنسحب من جزيرة مالطا كما كانت قد وعدت، واعترضت على ضم نابليون لإقليم بيمونتي الإيطالي إلى فرنسا وعلى إصداره لمرسوم الإصلاح الذي أنشأ بموجبه كونفدرالية سويسرية جديدة، على الرغم من أن المعاهدة لم تنص على عدم جواز إتيان فرنسا مثل هذه الأفعال في تلك المناطق من أوربا. تُوج هذا الخلاف بين الدولتين بإعلان بريطانيا الحرب في

شهر مايو من سنة ١٨٠٣، فقام نابليون باستكمال تجهيز القاعدة العسكرية في بولونيا البحرية بالرجال والعتاد اللازمة، وعقد العزم على غزو بريطانيا والقضاء عليها نهائيًا.

وفي تلك الأثناء كانت فرنسا تواجه مشكلة في مستعمرة هاييتي الواقعة قبالة شواطئ أمريكا الوسطى، ذلك أن نابليون كان قد أعاد إقرار صحة الاتجار بالرقيق في قانون ٢٠ مايو لسنة ١٨٠٢ في جميع المستعمرات الفرنسية، ملغيًا بذلك قانون ٤ فبراير لسنة ١٧٩٤ الذي كان قد قضى على العبودية نهائيًا في تلك المستعمرات، فثار سكان ذاك القسم من جزيرة هيسپانيولا، وبشكل خاص المستعبدين منهم، ثاروا على الفرنسيين وقاوموهم وتكبد كلا الطرفين خسائر بشرية كبيرة. أرسل نابليون، بعد أن علم بهذه الثورة، جيشًا ليستعيد السيطرة على القسم الغربي من الجزيرة المعروف باسم القديس دومينيك، وليُقيموا قاعدةً فرنسية هناك، إلا أن ذلك الجيش لم يستطع أن يفعل شيئًا، إذ أُفني عن بكرة أبيه بفعل انتشار الحمى الصفراء بين الجنود وبسبب المقاومة الشديدة التي أبداها القادة العسكريون الهاييتيون، مثل اللواء توسان لوفرتور وجان جاك ديسالين. وما أن بدأت الحرب مع بريطانيا تلوح بالأفق، وتبين لبونابرت أنها واقعة قريبًا لا محالة، قام ببيع حصة فرنسا من الأراضي في أمريكا الشمالية إلى الولايات المتحدة، خصوصًا أنه لم يكن بالإمكان الدفاع عنها ضد البريطانيين بحال زحفوا عليها من مستعمراتهم الكندية شمالاً. أضف إلى ذلك أن الخزينة الفرنسية كانت على شفير الإفلاس، وكانت الدولة بحاجة إلى موارد مالية تستطيع بواسطتها أن تُنفق على الجيش في الحرب القادمة. حصلت الولايات المتحدة على الأراضي التي شكّلت مستعمرة لويزيانا الفرنسية مقابل أقل من ٣ سنتات للفدان الواحد (٤٠ , ٧S للكيلومتر المربع).

كانت العلاقات الودية بين الدولة الفرنسية والكنيسة الكاثوليكية قد انقطعت إبان الثورة. ولما تولى نابليون الحكم رأى أن المصلحة تقتضي إعادة التفاهم بين الكنيسة وفرنسا. وبعد مفاوضات استمرت عدّة أشهر، عقد مع البابا بيوس السابع معاهدة بابوية في سنة ١٨٠١. فاعترف نابليون في هذه المعاهدة بالبابا رئيسًا للكنيسة وأزال بعض القيود التي فرضتها الثورة على رجال الدين. ومقابل ذلك اعترف البابا بمصادرة أملاك الكنيسة على أن تدفع الدولة رواتب رجال الدين. ووافق البابا كذلك على أن يختار نابليون الأساقفة وأن يُعين هؤلاء رجال الدين الذين هم دونهم. وبهذا الاتفاق عادت المياه إلى مجاريها بين فرنسا والبابا.

كان في فرنسا قبل الثورة ما يقرب من ثلاثمائة قانون يختلف الواحد منها عن الآخر. وكانت جميعها نافذة في المناطق الفرنسية المختلفة. فألّف نابليون لجنة من كبار رجال القانون وطلب إليها توحيد الشرع الفرنسي. وبعد بضع سنوات من العمل الشاق أخرجت تلك اللجنة للعالم في سنة ١٨٠٤ قانونًا مدنيًا عرف باسم قانون نابليون (بالفرنسية: Code Napoléon) وهو ينص على حقوق الأفراد وواجباتهم وعلى أمور الزواج وطلاق والميراث وغير ذلك. كذلك، أنشأ نابليون في سنة ١٨٠١ مصرف فرنسا (بالفرنسية: Banque de France) ومنحه حق إصدار الأوراق المالية. فاستعاد النقد الفرنسي قيمته وثقة الناس به بعد أن كانت تلك الثقة قد تزعزعت خلال الثورة.

كانت الثورة قد قضت على نظام الطبقات وجعلت الناس متساوين. ولكن نابليون أنشأ طبقة جديدة من أصحاب الامتيازات لا ترتكز على الحسب والنسب كالسابق، بل على الخدمات الجليلة الشأن التي يُقدمها الفرد لوطنه. وتكون هذه الامتيازات على شكل أوسمة وألقاب تُمنح لمستحقيها من رجال العلم والأدب والسياسة والفن وغيرها. وعُرف هذا النظام باسم نظام جوقة الشرف (بالفرنسية: Légion d'honneur)، ولا يزال معمولاً به في فرنسا حتى الوقت الحاضر.

أدرك نابليون أهمية المدارس في توجيه النشأ فقرر أن يجعلها في يد الدولة وتحت إشرافها، فوضع نظامًا للتعليم يتألف من ثلاث مراحل هي مرحلة التعليم الابتدائي ومرحلة التعليم الثانوي ومرحلة التعليم العالي. وكان يُطلق على معاهد التعليم العالي اسم الجامعة أو جامعة فرنسا. وقد تمّ اختيار بونابرت سنة ١٨٠١ رئيسًا للأكاديمية الفرنسية للعلوم، فعيّن بدوره عالم الفلك والرياضيات جان باتيست جوزيف ديلامبر أمينًا دائمًا لها. ولمّا كان نابليون يُعين كبار موظفي الجامعة بنفسه فقد استطاع أن يُخضع معاهد التعليم في فرنسا لإشرافه المباشر. وكان نابليون يفرض على المدارس أن تُلقن طلابها الولاء والإخلاص للوطن والمحبة والطاعة لشخصه. وكانت الحكومة تنفق على معظم هذه المدارس وتعتبر المدرّسين فيها من موظفي الدولة. غير أن هذا المنهاج لم يُنفّذ بكامله بسبب المبالغ لكبيرة التي يتطلبها تحقيقه، وبقي نصف الطلاب الفرنسيين تقريبًا يتلقون العلم في المدارس الخاصة التي كان معظمها تابعًا للكنيسة الكاثوليكية. اتسعت سلطة نابليون مع ولادة دستور السنة العاشرة، حيث جاء في المادة الأولى منه: إن الشعب الفرنسي يُسمي، ومجلس الشيوخ يُعلن نابليون بونابرت قنصلاً عامًا مدى الحياة. بعد ذلك لم يعد أحد يرمز إليه باسم بونابرت بل باسم نابليون.

إن مشاغل نابليون الكثيرة لم تصرفه عن الاهتمام بالمشاريع العمرانية العامة. فأنشأ شبكة طويلة من الطرق وبنى الجسور وحفر الأقنية وطوّر شبكات الصرف الصحي وجفف المستنقعات ووسع المرافئ الكبيرة وجمّل مدينة باريس وشيّد في وسطها قوس النصر تخليدًا لذكرى انتصاراته. ونشّط الزراعة والصناعة والتجارة والعلوم والفنون بمختلف الوسائل.



مؤامرات ضد نابليون:

تعرّض نابليون بصفته حاكم فرنسا لعدد من المؤامرات الهادفة لاغتياله، والتي حاكها ضده الملكيون واليعاقبة، وقد شملت هذه مؤامرة الخناجر (بالفرنسية: Conspiration des poignards) في أكتوبر من عام ١٨٠٠، ومؤامرة شارع القديسة نيسيز بعد شهرين من المؤامرة الأولى. وفي شهر يناير من سنة ١٨٠٤، كشفت الشرطة مؤامرة جديدة تهدف للتخلص من بونابرت، كان أحد مخططيها هو اللواء جون مورو الذي أخضع النمسا للشروط التي فرضتها عليها فرنسا في مفاوضات السلام بعد معركة مرنكو قبل ٣ سنوات من ذلك التاريخ، كما تبين أن هذه المؤامرة كانت برعاية ومباركة آل بوربون، حكّام فرنسا السابقين. أمر نابليون باعتقال دوق إنيان، المدعو لويس أنطوان، وهو أحد أقارب أسرة بوربون، بناءً على نصيحة من تاليران، على الرغم من أن هذا الأمر كان يُشكل خرقًا لسيادة ولاية بادن الألمانية المجاورة، حيث كان الدوق يقطن. أعدم الأخير بعد محاكمة سرية، على الرغم من أنه لم يكن طرفًا في المؤامرة ضد نابليون.

استغل نابليون هذه المؤامرات التي هدفت للقضاء عليه ليُبرر إلغاءه نظام القنصلية وإعادة إنشاء نظام ملكي وراثي في البلاد، يحمل فيه لقب الإمبراطور، وبهذا يكون أيضًا قد وضع الكثير من العوائق في درب آل بوربون، وجعل من الصعب عليهم أن يعودوا للتربع على عرش فرنسا، خصوصًا وإن الخلافة البونابرتية ستكون قد أصبحت مرسخة في الدستور الفرنسي بعد قيام النظام الجديد. توّج نابليون نفسه إمبراطوراً بتاريخ ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٤ في كاتدرائية نوتردام في باريس بحضور البابا، ثمّ توّج زوجته جوزفين.

وهناك رواية تفيد بأن نابليون قام بسحب التاج من يديّ البابا بيوس السابع أثناء الحفل وتوّج نفسه بنفسه كي لا يخضع للسلطة البابوية، إلا أن

معظم المؤرخين يقولون: إن هذه الرواية مشكوك بصحتها؛ إذ إن إجراءات التتويج كان قد اتُفق عليها مسبقًا بحسب الرأي الغالب. تُوج نابليون ملكًا على إيطاليا بتاريخ ٢٦ مايو سنة ١٨٠٥ في كاتدرائية ميلان، ثم قام بإنشاء طائفة «مشيرو فرنسا» (بالفرنسية: Maréchal de France) المكونة من أكبر ألوية جيشه وأكثرهم إخلاصًا، ليضمن وفاء الجيش الدائم له. كان الموسيقار الألماني لودفيغ ڤان بيتهوڤن من أشد المعجبين ببونابرت ونبوغه العسكري والسياسي، لكن خاب أمله عندما حوّل الأخير نظام الحكم في فرنسا إلى نظام إمبريالي، فقام بشطب القطعة الموسيقية التي كان قد كتبها ولحنها خصيصًا للقائد الفرنسي من سمفونيته الثالثة.

حرب الائتلاف الثالث:

بينما كان نابليون يتهيأ لغزو بريطانيا في سنة ١٨٠٥، كانت حكومتها قد أقنعت كل من النمسا والإمبراطورية الروسية بالدخول معها في حلف لمحاربة فرنسا، وكان نابليون يُدرك عجز البحرية الفرنسية عن الدخول وجهًا لوجه في معركة مع البحرية الملكية البريطانية، لذا قام برسم خطة لاستدراج السفن البريطانية بعيدًا عن القناة الإنجليزية، حتى تتمكن السفن الفرنسية من قتالها بشكل أفضل. وكانت الخطة تقضي بأن تقوم البحرية الفرنسية بخرق الحصار البريطاني لمدينة طولون وبريست والتوجه نحو جزر الهند الغربية، المستعمرة البريطانية، والتهديد بقصفها، فتضطر عندئذ البحرية الملكية أن تنسحب من على حدود بريطانيا الغربية للدفاع عن تلك المستعمرة، فتقوم فرنسا بالتعاون مع حليفتها إسبانيا بإرسال أسطول مشترك للسيطرة على القناة لفترة تسمح بعبور الجيوش الفرنسية من شمال فرنسا إلى إنكلترا. إلا أن انتصار البريطانيين في معركة رأس فينيستر البحرية في شهر يوليو من سنة ١٨٠٥، وانسحاب أمير البحر پيير شارلز ڤيلنوف إلى ميناء مدينة قادس، جعل نابليون يُدرك عجز قواته وعدم

تمكنه من الوصول إلى بريطانيا لمحاربتها في عقر دارها.

بعد أن غض نابليون الطرف عن غزو بريطانيا، أمر جيشه المتمركز بشمال فرنسا بالزحف سرًّا على ألمانيا، في حملة أطلق عليها اسم حملة أولم، فأحاط الجيش الفرنسي بالقوات النمساوية التي كانت على وشك أن تُهاجم فرنسا، قاطعًا بذلك خطوط التواصل بينها، وهزمها هزيمةً كبيرة بتاريخ ٢٠ من أكتوبر سنة ١٨٠٥. قبض الفرنسيون على ٣٠,٠٠٠ أسير في تلك المعركة، إلا أنهم منوا بهزيمة ضخمة في اليوم التالي، عندما انتصر أمير البحر البريطاني هوراشيو نيلسون على الأسطول الفرنسي في معركة طرف الغار قرب الشاطئ الإسباني، مما جعل بريطانيا تبسط سيطرتها على البحار. وبعد ستة أسابيع من هذه الحادثة، وفي اليوم الذي يوافق الذكرى الأولى لتربع بونابرت على العرش، هزم الجيش الفرنسي الجيشين النمساوي والروسي في معركة أوسترليتز. كانت نتيجة هذا الانتصار أن انتهت حرب الائتلاف الثالث، فأمر نابليون عند ذلك بالبدء ببناء قوس النصر في وسط مدينة باريس لتخليد ذكرى هذا النصر، ثم توجه إلى مدينة ڤيينا عاصمة النمسا، وفرض عليها شروطًا قاسية للصلح. اضطرت النمسا إلى أن تتنازل عن المزيد من الأراضي لصالح فرنسا، وأن توقع على معاهدة سلام پراسبورغ التي قضت نهائيًا على الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأدّت لولادة اتحاد الراين (بالفرنسية: États confédérés du Rhin؛ وبالألمانية: Rheinbund) الذي سُمي نابليون مرشدًا وحاميًا له.

قال نابليون عن معركة أوسترليتز: إنها أروع معركة خضتها في حياتي. يقول المؤرخ فرانك مكلين: إن نابليون بلغ من النجاح حدًا في أوسترليتز جعله يفقد إحساسه بالواقع، وأن ما كان يُعد سابقًا سياسة فرنسية خارجية، أصبح في ذلك الوقت يُعد سياسة نابليونية خاصة، أي بتعبير آخر أصبح نابليون يُمثل فرنسا من جميع النواحي، حتى من ناحية الشعب، فإرادته الخاصة وفقًا لهذا المؤرخ هي إرادة الشعب الفرنسي. إلا أن المؤرخ

البريطاني ڤينس كرونين يقول بأن نابليون لم يقم بتلك الحملة وما تلاها تحقيقًا لطموح شخصي، بل تحقيقًا لطموح ثلاثين مليون فرنسي، أي أن الفرنسيين أنفسهم كانوا راغبين وموافقين على ما قام به نابليون واعتبروه يُحقق مصلحة بلادهم.

التحالف مع العثمانيين والفرس وخطة نابليون السياسية:

استمر نابليون يأمل بأن يُنشأ لفرنسا مركزًا ممتازًا في الشرق الأوسط، حتى بعد فشل حملته المصرية، وذلك كي يضغط على الحدود الجنوبية للإمبراطورية الروسية ويُحاصرها من تلك الجهة. جهد نابليون جهدًا عظيمًا بدأ من سنة ١٨٠٣ ليُحاول إقناع الدولة العثمانية بالدخول معه في حلف ضد الإمبراطورية الروسية ومحاربتها في بلاد البلقان، فأرسل اللواء «هوراس سبستياني» لتجديد رباط الاتحاد والوداد مع الدولة، حاملاً معه خطابًا من بونابرت إلى السدة السلطانية يعد فيه الإمبراطور السلطان سليم الثالث بالمساعدة على استعادة الولايات والإمارات العثمانية المفقودة لمصلحة روسيا. وبعد انتصار نابليون في معركة أوسترليتز وما تلاها من تقطيع لأوصال إمبراطورية هابسبورغ التابعة للنمسا، اعترف السلطان بنابليون إمبراطوراً على فرنسا، وأعلن رسميًا أن الإمبراطورية الفرنسية هي الحليف المخلص الدائم للدولة العليّة، وأعلن الحرب على كل من بريطانيا وروسيا في وقت لاحق. كذلك، أنشأ نابليون حلفًا مع الدولة القاجارية ضد روسيا وبريطانيا، استمر منذ سنة ١٨٠٧ حتى سنة ١٨٠٩. انتهى هذان الحلفان عندما عادت فرنسا وتحالفت مع روسيا وحولت انتباهها إلى أوروبا من جديد.



حرب الائتلاف الرابع:

تشكل الائتلاف الرابع من الدول لمحاربة فرنسا في سنة ١٨٠٦، بعد هزيمة النمسا وروسيا في معركة أوسترليتز، وضمّ كل من: بروسيا، روسيا، بريطانيا، ساكسونيا، السويد، وصقلية. وفي ذات السنة وقع خلاف بين نابليون وبروسيا، فتقدمت الجيوش الفرنسية بسرعة خاطفة وهزمت البروسيين في «معركة يينا»، واحتلت عاصمتهم برلين، فانسحب «فريدريش ڤيلهام الثالث» ملك بروسيا إلى ناحية الشرق كي ينضم لحليفته روسيا التي أرسلت جيشًا لنجدته. لكن نابليون زحف على الجيش الروسي المتقدم عبر بولندا وقاتلهم قتالاً دمويًا في معركة إيلاو أزهقت فيه أرواح الكثير من الجنود الفرنسية والروسية، وانتهى بتراجع الجيش الروسي من مواقعه في السادس من فبراير سنة ١٨٠٧.

لاحق نابليون الجيش الروسي المنسحب إلى بروسيا الشرقية، وهزمه والبروسيين معًا في معركة فريدلند، وبعد هذا النصر الحاسم، أبرم نابليون معاهدتين عُرفتا باسم معاهدتي تيلزينت تيمنًا بمدينة تيلزينت الواقعة في روسيا، فاقتسم بموجب إحداها السلطة في أوربا مع القيصر الروسي ألكسندر الأول؛ أما الثانية التي أُبرمت مع بروسيا، فاقتطع بموجب نصوصها جميع أراضي تلك الدولة التي تقع غربي نهر الألب، وجميع الأراضي التي غنمتها في التقسيمين الثاني والثالث من بولندا، وصنع من ذلك دويلات جديدة، نصب على عروشها بعض أقربائه وأصدقائه، مثل شقيقه جيروم الذي توّجه ملكًا على مملكة وستفاليا. كذلك أنشأ نابليون دوقية وارسو في الجزء الذي سيطرت عليه فرنسا من بولندا، ونصب على عرشها الملك فريدريك أغسطس الأول.

لمّا أخضع نابليون أوربا كلها تقريبًا لسيطرته وعجز عن بريطانيا، عمد إلى محاربتها اقتصاديًا. فحرّم على جميع الدول الأوربية المتاجرة معها، عن

طريق إصداره لمرسومين إمبراطوريين، أحدهما في مدينة ميلان والآخر في برلين، يُحرمان جميع أعمال التجارة كالاستيراد والتصدير مع المملكة المتحدة. إلا أن هذه الحرب الاقتصادية لم يُكتب لها النجاح، إذ أن بريطانيا ردّت عليه بالمثل، فمنعت المتاجرة مع فرنسا، وضربت حصارًا على القارة الأوربية، كذلك نشطت أعمال التهريب من وإلى بريطانيا، ولم يستطع ضبّاط الجمارك الفرنسيون أن يفعلوا شيئًا لإيقافها.

حرب شبه الجزيرة العربية:

كانت البرتغال صديقةً لبريطانيا، فلم تنقطع عن التعامل معها، مخالفةً بذلك المراسيم الإمبراطورية التي أصدرها نابليون، فاتفق الأخير مع حليفته إسبانيا على غزوها واقتسامها بينهما. وفي سنة ١٨٠٧ نفذا هذه الخطة بنجاح. ولكن نابليون كان يطمع في إسبانيا نفسها، فأبقى جيشه فيها بحجة الحلف القائم بين الدولتين، وأجبر ملكها كارلوس الرابع على التنازل عن العرش، وتوّج أخاه «جوزيف» ملكًا عليها في سنة ١٨٠٨، وجعل في منصب الأخير السابق، كملك على نابولي، صهره «يواقيم مراد». أثار تصرف بونابرت شعور الشعب والجيش الإسباني الذي هبّ لمحاربة الفرنسيين بدءًا من ٢ من مايو سنة ١٨٠٨، فيما عُرف باسم انتفاضة الثاني من مايو (بالإسبانية: El Levantamiento del dos de mayo). هزم نابليون الجيش الإسباني، بعد أن كان الأخير قد نجح في التغلب على الفرنسيين وإخراجهم من مدينة مدريد واسترجاع العديد من الأراضي المفقودة، كذلك تمكن نابليون من هزيمة فرقة عسكرية بريطانية أرسلت لدعم الثوّار الإسبان، ودفع بالجنود نحو الشاطئ الشمالي لشبه الجزيرة الأيبيرية. وقبل أن يتم إخضاع الشعب الإسباني بالكامل، كانت النمسا قد أعلنت الحرب مجددًا على فرنسا، فاضطر نابليون إلى أن يترك إسبانيا ويعود إلى بلاده.

استمرت حرب شبه الجزيرة الأيبيرية مشتعلةً في غياب نابليون، وكلّفت فرنسا وإسبانيا ثمنًا باهظًا من الناحية البشرية والمالية؛ ففي الحصار الثاني لمدينة سرقسطة، لحق الدمار بمعظم أنحاء المدينة، وقُتل ما يزيد عن ٥٠,٠٠٠ شخص من سكانها. وعلى الرغم من أن نابليون كان قد ترك ثلة من نخبة جنوده، الذين وصل عددهم إلى ٣٠٠,٠٠٠ جندي، لقتال المقاومين الإسبان إلى جانب القوات البريطانية والبرتغالية بقيادة آرثر ويلزلي الدوق الأول لولينگتون، إلا أن السيطرة الفرنسية على شبه الجزيرة استمرت بالتضعضع والانهيار شيئًا فشيئًا. استمرت هذه الحرب عدّة سنوات، وكانت في واقع الأمر أول خطوة نحو انهيار نابليون، ولم تنته إلا عندما تنازل الأخير عن العرش سنة ١٨١٤. وصف نابليون حرب شبه الجزيرة الأيبيرية في وقت لاحق على أنها كانت محور هزيمته النهائية، فكتب في مذكراته يقول: إن تلك الحرب المشؤومة هي ما دمرني... لقد شكلت العقدة القاتلة... التي تفرعت منها جميع الكوارث اللاحقة التي حلّت بي.

حرب الائتلاف الخامس والزواج الثاني:

عندما كان نابليون منهمكًا في إخضاع الثورة الإسبانية، قامت النمسا فجأة بفض تحالفها مع فرنسا، وذلك في شهر أبريل من عام ١٨٠٩، وهبت للانقضاض على بونابرت بتحريض من بريطانيا، فاضطر نابليون إلى أن يترك إسبانيا ويقود الجيش الفرنسي المرابط على نهر الدانوب والحدود الألمانية بنفسه. انتصر الفرنسيون في بادئ الأمر على النمساويين في بعض المعارك الصغيرة، لكنهم عادوا وواجهوا صعوبة في عبور الدانوب، فهُزموا بالقرب من ڤيينا في «معركة آسپيرن-إسلينغ» بتاريخ ٢٢ مايو من نفس العام. لكن النمساويين فشلوا في الاستفادة من الوضع وما لحق بالجيش الفرنسي، الأمر الذي أعطى نابليون الفرصة ليُعيد تنظيم الصفوف ويقهر

الجيش النمساوي في معركة ڤاگرام. توجه نابليون بعد انتصاره إلى مدينة ڤيينا، عاصمة النمسا، حيث أملى شروط الصلح ووقع مع النمساويين «معاهدة شونبرون»، التي قضت بسلخ أجزاء مهمة أخرى من الإمبراطورية النمساوية المجرية.

كانت بريطانيا ترغب في فتح جبهة جديدة في البر الأوربي موجهة نحو فرنسا، إلى جانب الجبهة الأيبيرية، فقام البريطانيون بالتخطيط لحملة هولندية عُرفت باسم حملة ڤالخرن (بالإنجليزية: Walcheren Campaign)، لكنهم ما أن بدؤوا بتنفيذها حتى أرسل نابليون تعزيزات عسكرية إلى مدينة أنتويرب البلجيكية القريبة من هولندا، محبطًا بذلك خطة بريطانيا في الهجوم على فرنسا. قام بونابرت بعد ذلك باحتلال الدولة البابوية بسبب رفض الكنيسة دعم حربه الاقتصادية على بريطانيا؛ فرد البابا پيوس السابع بحرمان الإمبراطور حرمانًا كنسيًا. وبعد هذا الفعل الذي أتاه البابا، قام الضباط الفرنسيون باعتقاله، على الرغم من أن بونابرت لم يأمر بذلك، إلا أنه بالمقابل لم يأمر بإطلاق سراحه عندما علم بما جرى. نُقِل البابا عبر طول الأراضي الخاضعة لنابليون وعرضها، حتى في الفترات التي كان يُعاني خلالها من نوبات مرضيّة، واستمر نابليون يُرسل له وفودًا تضغط عليه للموافقة على بعض الأمور، بما فيها التوقيع على معاهدة بابوية جديدة مع فرنسا، إلا أن پيوس رفض ذلك. تزوج نابليون في سنة ١٨١٠ من ابنة الإمبراطور النمساوي ماري لويز أرشيدوقة بارما، بعد أن طلق من جوزفين؛ الأمر الذي أدى لمزيد من التوتر في علاقته مع الكنيسة، حيث رفض ثلاثة عشر كاردينالاً حضور حفل زفافه، فأمر بسجنهم جميعًا. بقي البابا في الأسر طيلة ٥ سنوات ولم يرجع إلى روما حتى شهر مايو من سنة ١٨١٤.

وافق نابليون على تربع كارل يوحنا الرابع عشر ملكًا على السويد في شهر نوفمبر من سنة ١٨١٠، والأخير كان يعمل مشيرًا في خدمة بونابرت وفرنسا منذ الثالث من سبتمبر سنة ١٧٨٠، وعُرض عليه التاج بعد أن توفي ولي العهد السويدي إثر أزمة قلبية، وتنازل له الأمير الذي يليه في المرتبة عن المنصب. كان نابليون قد وافق على تولّي المشير السابق عرش السويد إكرامًا لخطيبته السابقة ديزيريه كلاري التي تزوج منها كارل يوحنا، لكنه عاد وندم على موافقته هذه وعلى إبقائه للأخير على قيد الحياة، عندما أقدم يوحنا على التحالف مع أعداء فرنسا لاحقًا



غزو روسيا:

كان نابليون قد عقد مؤتمرًا في مدينة إرفورت بألمانيا، امتد من ٢٧ سبتمبر إلى ١٤ أكتوبر من سنة ١٨٠٨، وعُرف باسم مؤتمر إرفورت، مع القيصر ألكسندر الأول، نصا فيه على توثيق العلاقات بين الإمبراطوريتين الفرنسية والروسية وعلى اتخاذ كل منهما للآخر حليفًا، أضف إلى ذلك أن القائدين كانت تجمعهما صداقة حميمة منذ أن التقيا للمرة الأولى في مدينة تيلزينت سنة ١٨٠٧. إلا أنه بحلول عام ١٨١١، كان التوتر قد تصاعد بين الدولتين، وكان القيصر يتعرّض لضغوط كثيرة من قبل النبلاء ليفض الحلف مع فرنسا. وكانت أولى بوادر انحلال هذا الحلف تعامل روسيا باللين مع المملكة المتحدة، متجاهلةً الحرب الاقتصادية التي فرضها عليها نابليون، الأمر الذي أثار غضب الأخير. وفي سنة ١٨١٢، اقترح المستشارون على القيصر ضرب عصفورين بحجر واحد: غزو فرنسا والقضاء على نابليون، واسترجاع بولندا بعد انحلال الإمبراطورية الفرنسية. وصلت أنباء الاستعدادات الروسية للحرب إلى نابليون عن طريق تقارير الاستخبارات الفرنسية، فجهّز جيشًا ضخمًا وصل تعداده إلى

٤٥٠,٠٠٠ رجل وزحف به على روسيا بتاريخ ٢٣ يونيو سنة ١٨١٢، متجاهلاً النصائح المستمرة التي قدمها له المستشارون بعدم غزو الأراضي الروسية الداخلية بسبب مساحتها الشاسعة ومناخها القاسي المختلف عمّا اعتادت عليه الجنود الفرنسيون.

أطلق نابليون على هذه الحرب اسم الحرب البولندية الثانية، وذلك في محاولة منه لكسب تأييد البولنديين الوطنيين، وكانت الحرب البولندية الأولى قد وقعت قبل ذلك في سنة ١٧٦٨، وخاضتها روسيا ضد اتحاد بار، وهو اتحاد مكوّن من النبلاء البولنديين الذين رفضوا تدخل روسيا في شؤون بلادهم وتحالف ملكهم ستانيسلاف أوغست بونياتوفسكي مع الروس. وكان الوطنيون البولنديون يرغبون بأن يُضم القسم الروسي من بولندا إلى دوقية وارسو حليفة فرنسا، وتكوين دولة بولندية مستقلة. رفض نابليون هذا الطلب قائلاً أنه قد وعد حليفته النمسا بألا يحصل شيء من هذا على الإطلاق. كذلك رفض نابليون إعتاق الأقنان الروس خوفًا من أن يؤدي ذلك إلى ردّة فعل غير محمودة في مؤخرة جيشه، وكردة فعل على ذلك، ارتكب الأقنان عددًا من الأعمال الوحشية عند انسحاب الجيش الفرنسي من روسيا في وقت لاحق من ذلك العام.

تفادى الروس هدف بونابرت القاضي بالاشتباك معهم في معركة وحيدة حاسمة، وتراجعوا إلى داخل روسيا عوضًا عن ذلك، وبقي ١٣٠,٠٠٠ جندي منهم في مدينة سمولينسك في محاولة لصد التقدم الفرنسي، لكنهم هُزموا، وتابع الفرنسيون تقدمهم محققين الانتصار تلو الأخر في سلسلة من المعارك. تابع الجيش الروسي تفادي الاحتكاك مع الفرنسيين، على الرغم من أن هذا كان بسبب عدم إقدام نابليون على المناداة بالهجوم في بعض الأحيان على نحو غير معهود. وإن كان الروس قد تجنبوا قتال جيش بونابرت، إلا أنهم اتبعوا إستراتيجية الأرض المحروقة، مدمرين

كل قرية أو حقل أو بستان مروا به، الأمر الذي جعل من العسير على الفرنسيين العثور على الطعام الكافي لهم ولخيولهم.

عرض الروس على نابليون معركةً في نهاية المطاف، على أن تقع خارج موسكو، فوافق نابليون على هذا الاقتراح، ونشبت معركة بورودينو (بالروسية: Бородинская битва؛ وبالفرنسية: Bataille de la Moskowa)، التي نجم عنها خسارة ٤٤,٠٠٠ جندي روسي و٣٥,٠٠٠ جندي فرنسي ما بين قتيل وجريح وأسير، وقد قيل في هذه المعركة: إنها كانت أكثر المعارك دمويةً في التاريخ البشري حتى ذلك الحين. وعلى الرغم من أن الفرنسيين انتصروا، إلا أن الروس تفاخروا بأنهم صمدوا في وجه نابليون ولم يعطونه الفرصة التي كان يحلم بها، بأن يقضي عليهم في معركة واحدة حاسمة. قال نابليون عن هذه المعركة: إن أسوأ معركة خضتها في حياتي كانت تلك التي وقعت قرب موسكو. لقد أظهر الفرنسيون أنفسهم بمظهر مستحقي النصر، لكن الروس أظهروا أنفسهم بمظهر غير المقهورين.

تراجع الجيش الروسي بعد معركة بورودينو لما بعد مدينة موسكو، فدخلها نابليون معتقدًا أن فتحها سوف يُنهي الحرب وأن القيصر سيطلب منه البدأ بإجراء محادثات السلام. إلا أن حاكم المدينة، المدعو فيودور روستوبشين، رفض الاستسلام وأضرم النار في جميع أنحاء موسكو ليلاً وأحرقها عن بكرة أبيها. وبعد شهر من هذه الحادثة، انسحب الجيش الفرنسي من موسكو بعد أن بلغت نابليون أنباء مقلقة عن اضطراب الأوضاع في فرنسا وخوفه من فقدان سلطته.

عانى الفرنسيون معاناة كبيرة أثناء انسحابهم وذاقوا الأمرّين، إذ تعاون برد الشتاء الروسي القارس والمرض ومناوشات الأقنان على إفناء الجيش فلم يسلم منه إلا عدد قليل، فقد كان عدد الجنود في بداية الحملة يصل لأكثر من ٤٠٠,٠٠٠ جندي على الخط الأمامي، أما عند العودة في شهر

نوفمبر من سنة ١٨١٢، لم ينجح أكثر من ٤٠,٠٠٠ منهم بعبور نهر بيريزينا، أحد روافد نهر الدانوب في روسيا البيضاء. أما الروس، ففقدوا ١٥٠,٠٠٠ جندي ومئات الألوف من المدنيين.



حرب الائتلاف السادس:

عاد نابليون إلى باريس فجهّز حملة جديدة قوامها ٣٥٠,٠٠٠ جندي، وذلك خلال فترة سنة امتدت من شتاء سنة ١٨١٢ حتى الشتاء التالي، وحاول أن يعود بها إلى روسيا. وعرف البروسيون ما حل بنابليون في روسيا، وأدركوا أن الفرصة سنحت لتحريرهم، فشكلوا حلفًا جديدًا مع روسيا وبريطانيا والسويد والنمسا وإسبانيا والبرتغال، وواجهوا نابليون بجيوشهم، فألحق بهم عدد من الخسائر توّجت بمعركة دريسدن بألمانيا بتاريخ ٢٦ و٢٧ أغسطس سنة ١٨١٣. وعلى الرغم من هذا النجاح الذي حققه نابليون إلا أن ذلك لم يُحبط عزيمة الحلفاء، فزادوا من أعداد جيوشهم، وما زالوا يزيدونها حتى هزموا نابليون هزيمة كبيرة في معركة الأمم بقوة عسكرية بلغ حجمها ضعف حجم جيشه. كانت هذه المعركة أكبر معارك الحروب النابليونية، حيث وصل عدد القتلى فيها إلى ٩٠,٠٠٠ قتيل.

انسحب نابليون عائدًا إلى فرنسا بعد أن تقلص عدد جيشه ليصل إلى ١١٠,٠٠٠ جندي استطاع ٧٠,٠٠٠ منهم الوصول إلى باريس بينما تلكأ الأربعون ألفًا الباقون، بينما كان عدد القوات الحليفة يفوق عدد الجيش الفرنسي بثلاثة أضعاف. وبعد عودة نابليون، وجدت فرنسا نفسها محاصرة، فقد كانت القوات البريطانية تقبع على حدودها الجنوبية، بينما كانت القوات الحليفة الأخرى متمركزة على حدود الولايات الألمانية المجاورة، مستعدة للانقضاض عليها في أي وقت. حاول نابليون مقاومة

الحلفاء المحاصرين، فانتصر عليهم في بضعة معارك في حملة أطلق عليها اسم حملة الأيام الستة، إلا أن تلك الانتصارات لم تكن ذات أهمية كبيرة ولم تبلغ الحد الذي يقلب الآية، فدخلت جيوش الحلفاء باريس في شهر مارس من سنة ١٨١٤.

عرض نابليون على قادة جيشه الهجوم على العاصمة الفرنسية وتحريرها من القوات الحليفة، لكن القادة رفضوا ذلك وفضلوا العصيان على الهجوم، وفي الرابع من أبريل واجهوا نابليون بهذا الأمر بقيادة المشير ميشيل ناي، أحد الضباط القدامى في فرنسا وصديق مقرّب من بونابرت، فقال الأخير أن الجيش سوف يتبعه، فأجابه ناي أن الجيش لن يتبع سوى قادته. فلم يجد نابليون بدًا من أن يتنازل عن العرش لصالح ابنه نابليون الثاني؛ إلا أن الحلفاء لم يقبلوا بهذا الأمر، فاضطر نابليون أن يتنازل دون قيد أو شرط، وذلك في ١١ أبريل سنة ١٨١٤. فعقد الحلفاء مؤتمرًا في قصر فونتينبلو أعلنوا فيه تنازل بونابرت، فقالوا:

«إن القوى الحليفة بعد أن أعلنت أن الإمبراطور نابليون كان العائق الوحيد في وجه إحلال السلام في أوروبا، فإن الإمبراطور نابليون، يُعلن وفاءً ليمينه، أنه قد تنازل عن منصبه، ومنصب أولياء عهده، من عرش فرنسا وعرش إيطاليا، وأنه ليس هناك من تضحية، حتى التضحية بحياته، هو ليس مستعد لأن يبذلها في سبيل صالح فرنسا.

أبرم الحلفاء بعد ذلك معاهدة عُرفت باسم معاهدة فونتينبلو، اتفقوا فيها على نفي نابليون إلى جزيرة صغيرة تُدعى ألبا تقع في البحر المتوسط على بعد ٢٠ كيلومترًا من شواطئ توسكانا، ويقطنها ١٢,٠٠٠ نسمة، وأعطوه سيادةً كاملة عليها، وسمحوا له بالإبقاء على لقبه كإمبراطور. حاول نابليون الانتحار عن طريق ابتلاع قرص سام كان يحمله معه منذ أن كاد الروس يقبضون عليه عند انسحابه من موسكو، إلا أن درجة السمومية فيها كانت قد خفّت مع مرور الزمن، فلم تعط النتيجة المرجوة،

ونجا بونابرت ليتم نفيه كما هو مخطط، بينما هربت زوجته وابنه ليحتميا في ڤيينا. أنشأ نابليون جيشًا وأسطولاً صغيرًا خلال الأشهر القليلة الأولى التي أمضاها في ألبا، كذلك قام بتطوير مناجم الحديد، وأصدر عدد من المراسيم لتطوير طرق الزراعة في الجزيرة وفق الأساليب الحديثة.

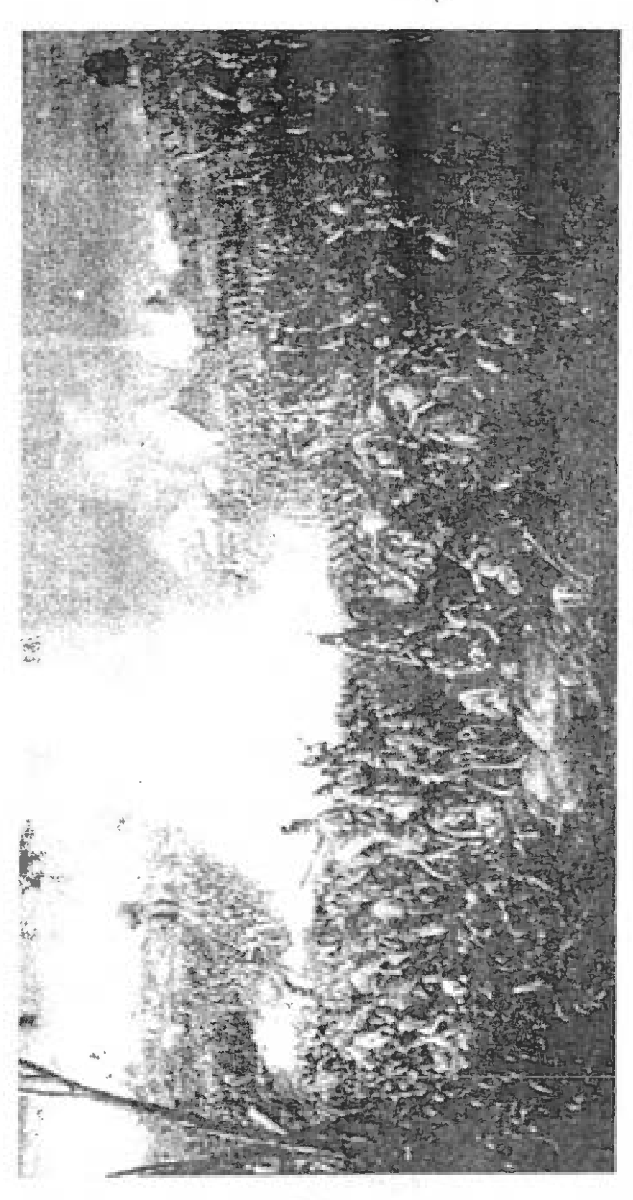
بعد ذهاب نابليون عادت الملكية إلى فرنسا وأصبح لويس الثامن عشر، أخو لويس السادس عشر، ملكًا. اجتمع المنتصرون في مدينة ڤيينا لإعادة تنظيم أوربا، ولكنهم اختلفوا وأوشكت الحرب أن تقع بينهم. وعلم نابليون بذلك، فهرب من منفاه بتاريخ ٢٦ فبراير سنة ١٨١٥، والواقع أن هذا العام كان الحجة الأخيرة التي احتاجها نابليون ليعود إلى فرنسا، فعلى الجزيرة ازداد شوقه لزوجته وابنه القابعين في النمسا، عدوته اللدودة، وقُطع عنه البدل الذي كان مقررًا له وفق معاهدة فونتينبلو، ووردت إلى مسامعه أخبارٌ تفيد بأن البريطانيين يرغبون بإرساله إلى جزيرة في المحيط الأطلسي، فكان خلاف الحلفاء كافيًا ليجعله يقرر العودة فورًا. وصل نابليون إلى فرنسا بعد يومين من مغادرته ألبا، وهبط في خليج خوان على الساحل الشرقي لفرنسا. وما أن سرى نبأ عودة بونابرت، حتى أرسل إليه لويس الثامن عشر الفوج الخامس من الجيش الفرنسي ليعترض طريقه ويقبض عليه، فقابلوه جنوب مدينة گرونوبل بتاريخ ٧ مارس سنة ١٨١٥. فاقترب نابليون من الجنود بمفرده ثم ترجّل عن حصانه واقترب أكثر حتى أصبح في مرمى نيرانهم، وصرخ قائلاً: ها أنا ذا. فلتقتلوا إمبراطوركم إذا شئتم، فصاحت الجنود يحيا الإمبراطور!، ثم ساروا وراء نابليون نحو باريس؛ وما أن علم الملك بما حصل حتى هرب من المدينة. أعلن المجتمعون في مؤتمر ڤيينا أن نابليون خارج عن القانون، وذلك في الثالث عشر من شهر مارس، وبعد ٤ أيام تعهدت كل من بريطانيا وهولندا وروسيا والنمسا وبروسيا أن تجمع جيوشها حتى تصل في عددها إلى ١٥٠,٠٠٠ رجل، كي تضع حدًا لحكم نابليون.

وصل نابليون إلى باريس في العشرين من مارس، وحكم البلاد لفترة أطلق عليها المؤرخون اسم الأيام المائة. وصل تعداد الجنود الفرنسية في أوائل شهر يونيو إلى ٢٠٠,٠٠٠ جندي، فقرر نابليون أن يُبادر بالهجوم كي يُحدث شرخًا بين القوات البريطانية والبروسية ويؤخر انضمامها لبعضها البعض، وبناءً على ذلك أرسل إلى جيش الشمال الفرنسي ليعبر حدود مملكة هولندا المتحدة، التي تُشكل اليوم الأراضي البلجيكية، استعدادًا لقتال البروسيين القادمين من تلك الأنحاء

وفي ١٨ يونيو سنة ١٨١٥، وقعت بين فرنسا والحلفاء معركة واترلو الحاسمة، وفيها صمدت الجنود البريطانية صمودًا كبيرًا على الرغم من الهجوم المستمر غير المتوقف للقوات الفرنسية، واستطاعت دحرهم من الميدان، إلى أن وصلت القوات البروسية وخرقت الجناح الأيمن للجيش الفرنسي، الذي تقهقر منهزمًا شر هزيمة. تُعزى هزيمة بونابرت في ذلك اليوم إلى قتاله لجيشين بجيش واحد على أرض رطبة موحلة، كذلك فإن صحته كانت قد تراجعت بعض الشيء وكذلك حيويته، الأمر الذي لم يجعل حضوره مهيبًا كالعادة وبالتالي لم يستطع التأثير بجنوده، أيضًا يُحتمل بأن كثيرًا من ضباطه خذلوه، وأخيرًا فإن عددًا من جنوده المخضرمين قضوا نحبهم أثناء العودة من روسيا، فكان لغياب خبرتهم على أرض المعركة صداه في نتيجتها. انسحب الجيش الفرنسي من ميدان المعركة في فوضى واضطراب شديدين، مما فتح المجال أمام الحلفاء ليعودوا إلى فرنسا وينصبون لويس الثامن عشر ملكًا عليها مجددًا.

حاول نابليون بعد هزيمته المريرة أن يهرب إلى الولايات المتحدة، فاستقل سفينة من مرفأ روشفور الواقع بغرب فرنسا وتوجه غربًا، لكنه لم يتعد كثيرًا إذ اعترضت طريقه بضعة سفن بريطانية وطالبت تفتيش السفينة، ولمّا عرض عليه مرافقيه الاختباء في إحدى البراميل، رفض بشدة معتبرًا ذلك إهانة لكرامته، فاستسلم إلى البريطانيين، وطلب اللجوء

السياسي من القبطان فريدريك لويس ميتلاند على متن سفينته إتش إم إس بيللير وفون، وذلك بتاريخ ١٥ يوليو سنة ١٨١٥.



معركة واترلو

الجانب الآخر لشخصية نابليون

نابليون معشوقاته وصحائف غرامياته :

نابليون بونابرت ... يكفي أن تنطق بهذا الاسم العظيم الخالد يمثل لك القدر والرهبة والجلال ويخيل إليك أن صاحبه سما بنفسيته على مستوى البشر لما تركه في صحائف البطولة التي تظل أبدا هاله نور تضيء اسمه عبر العصور ، ويبعث هذا النور في النفس ظلاً من الخيال يلازم شخصية نابليون البارزة ، فيظن الناس أن الجندي الجبار لم تكن تستهويه الشهرة ، ولم يكن ليغلب أمام سهام العيون وتعمد التاريخ إهمال ذكر غراميات نابليون إلا ما اشتهر منها وذلك حتى لا يلوث هذا المجد الذي أفنى هذا الجندي الباسل في تسطيرها .

كان نابليون فياض الشعور رقيق ، يألف حلو الحديث ، جذاب الشخصية ، حتى قيل عنه: إنه المثل الأعلى للمحب.

أول غرامياته :

مدام تاليران الفاتنة الحسناء ، والتي كانت تعتبر أجمل نساء عصرها هي أول حبيباته ، فقد عشقها ، وأغرم بها رغم بؤسه وفقره ، وكان يتخذ من حبها له قوة ، كان يذهب إليها لكي تبتاع له ملابسه الخاصة ، فكانت تجيب رغباته ، وتسدد حاجياته مسرورة طائعة.

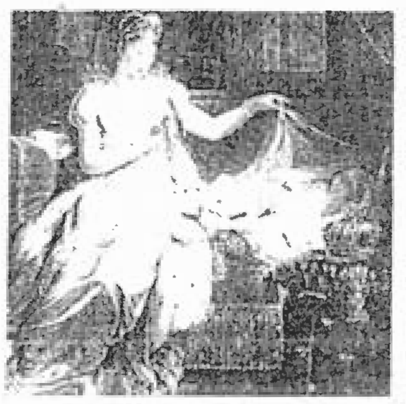
ظلت هذه العلاقة قائمة بينهما سنوات طويلة حتى بعد زواجه من جوزفين، ولما رأى أن الصلة أصبحت وثيقة بينها وبين زوجته ، أمر جوزفين بقطع علاقتها بها لتلوث اسمها واشتهار تبذلها.

ليلة زفافه والكلب :

تزوج نابليون من جوزفين عن حب تملك قلبه وعقله ، وحدث ليلة وفاته أن رأى نابليون عروسه تدخل إلى فراشها مع كلبها العزيز ، وتضعه على مقربة منها ، فطلب منها إبعاد الكلب ، ولكنها نظرت إليه باحتقار، وقالت: الكلب أولا ، فإذا لم يعجبك أن أجعله ينام في فراش عرسي ففي استطاعتك أن تنام في أي مكان آخر .

ونزل المسكين عند إرادتها ، ونام والكلب معها في سرير واحد، ويقول نابليون: إن الكلب عضه في قدمه في تلك الليلة ، فعمل على التخلص منه بعد ذلك ، فأوعز إلى أحد الجزارين فقتله في الشارع .

لم تكن جوزفين ولهة بحب نابليون كولهه بها ، فلما قام بحملاته وحروبه فضلت هي البقاء في باريس حيث يتسع لها جو الغزل والحب ، فاستسلمت لحبيبها هيبوليت شارل ، وعرف نابليون قصتها فخمدت جذوة حبه لها، بينما أخذت مشاعرها تنتبه للحقيقة وتدرك معنى الخطيئة والخيانة وتشتعل بحب نابليون ، ولكنه طلقها وتزوج ماري لويز ابنة عاهل النمسا ، لتلد له وريثا لعرشه .



ماري لويز الزوجة الثانية لنابليون

ولدت ماري لويز طفلاً وحيداً لنابليون

ويقول نابليون: إنه لم يحب جوزفين يومًا كحبه لها يوم طلاقها ، ولكنه أُرغم على هذا الطلاق ، وهو واثق أن ماري لويز لن تنسيه حبها وذكراها.

نابليون يحب كليوباترا :

دخل نابليون مصر على رأس الحملة الفرنسية ، وتصادف أن شاهد ذات يوم أثناء وجوده في مصر «بولين فور» وهي زوجة أحد صغار الضباط الفرنسيين ، وكانوا يطلقون عليها اسم كليوباترا لفتنتها وسحر جمالها الجذاب ، فأوعز نابليون إلى أحد خلصائه فأولم وليمة ضمته وإياه.

وبعد الغداء سكب هذا الصديق قليلا من القهوة على رداء هذه الفاتنة، وطلب إليها أن تتعجل في الصعود إلى غرفة النوم لتبديل ثيابها أو غسلها، وهناك وجدت نابليون في انتظارها .

ثم أقصى زوجها في بعثة حربية ، وظلت زمناً عشيقة نابليون حتى انتهى الأمر بها إلى خاتمة مدام تاليان الأولى ، حيث أنكرها وتجاهلها عند عودته إلى باريس.

امرأة خطرة :

وأحب نابليون بعد ذلك المغنية الايطالية الفاتنة جراسيني التي لم تستطع هدمها والتغلب عليها فقد أرادت أن تلعب دورا هاما في سياسة الملك ، ولكنه كان صلبا يرفض أن يتدخل أي مخلوق في عمله أو سياسته فهجرته بعد أن اتصلت بدوق ولنجتون وخرجت ظافرة بكرمه وحبه .



ممثلة صغيرة:

وكانت جورجينا ممثلة صغيره في الخامسة عشرة من عمرها حين رآها نابليون ذات مرة ، فأرسل إليها أحد أتباعه وراءها ، فجاءه بها ، وقد ضبطته جوزفين ذات يوم بين ذراعيها فخاف العاقبة ، ولكنه أحب مجلس الإدارة وقربها إليهم ، وكان يكثر من ملاطفتها ومداعبتها ، حتى أنه رفع ذات يوم إكليلا من الزهور البيضاء تضعه فوق رأسها ووضعه فوق رأسه ونظر إليها باسما .



أنا مشغول:

وأُعجب ذات مرة بممثلة فاتنة سحرته ، عندما كانت تقوم بدورها على المسرح ، فأرسل إليها أحد أتباعه فجاء بها إلى منزله ، وجلس نابليون يراجع أعماله وشؤونه الخاصة ، فشغل عنها وأرسل إليها يعتذر عن تأخيره ويطلب إليها الانتظار.

ومرت ساعات وساعات ، فأرسلت إليه التابع تتعجله ، فعاد يخبرها أن سيده مشغول ، لهذا يسمح لها بالانصراف.



الكونتس ماري والوسكا :

ولعل هذه أكثر امرأة أحبها نابليون بعد زوجته جوزفين وماري لويز، ورغم ذلك فقد عاملها بقسوة.

كانت بولانيه فاتنة أحبها ، فلم ترغب فيه ، ولكنه خلب لبها بالوعود والآمال ، وأكد لها أنه سيهب بلادها الحرية إن هي استسلمت لغرامه، فكابرت ، ولكن مواطنيها نصحوا لها بالتضحية في سبيل إنقاذ بلادها .

ولم يجن الحرية وإنما هي خطه هجومية رسمها نابليون للوصول إلى مبتغاه.

ماري فالسيكا وغراميات نابليون:

ماري فاليسكا فتاة تبلغ من العمر ثمانية عشر ربيعًا فقيرة، ولكن سحر جمالها أخاذ وساجية الطرف وفاتنة الملامح، تزوجت من الكونت فاليسكا الشيخ البولندي لثرائه العريض ومن الطريف أن أصغر أحفاده كان يكبرها بعشر سنوات، ولما دخل نابليون وارسو وأقام أهلها حفلًا كبيرًا له ، فرأى نابليون الكونتيسة، فلم ينم ، وأرسل إليها ثلاث رسائل ملتهبة مع ديرويك الذي كان لبقا في مجالجة عنادها حتى لانت ، وقابلت نابليون في العاشرة مساء ، وانقضت المقابلة الأولى بين النسر وفريسته بعد ثلاث ساعات من الملاطفة والإعجاب، ولما اطمأنت ماري إلى نابليون تكرر اللقاء الذي أثمر وزير خارجية فرنسا في عهد نابليون الثالث، فتأكد نابليون أن العيب كان في جوزفين وليس في شخصه!

آخر غرامياته:

لما نفي نابليون في جزيرة سانت هيلانة تعرف ليلة وصوله بالفتاة تمسى بالكومب الإنجليزية ، وهي ابنة تاجر يعيش في تلك الجزيرة ، وكانت في الرابعة عشرة من عمرها ، فأقام نابليون مؤقتا في منزل والدها ريثما يتم إعداد مكان لسكناه ، فأحبها وعاملها معاملة الأب لابنته ، فكان يلاطفها ويلاعبها محاولا تعلم اللغة الإنجليزية ، وإن كان لم يفلح .. وظلت هذه الفتاة موضع تسليته وملاطفته يلاعبها ، ويسرق أشياءها، فتعامله بالمثل دون أن يفكر يوما في خديعتها أو الاستئثار بها .

وهكذا انتهت صحائف غرامياته بصفحة بيضاء طاهرة.. بعد أن دوخ أوربا بفتوحاته وكان إمبراطور فرنسا إلى أن هزم في واترلو ونفي إلى سانت هيلانة.





نابليون منفيا على جزيرة سانت هيلانة

نابليون العاشق الولهان

الحب هو ذلك الشعور الخفي الذي يتجول في كل مكان، ويطوف الدنيا بحثا عن فرصته المنتظرة ليداعب الإحساس ويغازله، ويسحر العيون، ويتسلل بهدوء، ويستقر في غفلة من العقل، داخل تجاويف القلب، ليمتلك الروح والوجدان، ويسيطر على كيان الإنسان، ويزلزله زلزالا ويهزه بقوة. الحب كالموت، لا يفرق بين صغير وكبير، وغني وفقير، الحب جمرة من نار، تنشر شظاياها في قلوب المحبين، فتكويهم بلوعة الشوق وألم الفراق... الحب هو تلاقي الأنفاس وتشابك النظرات. وتحليقها في سماء تخلو من الأحقاد والأضغان.

وقديما قال الشاعر:

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرا من يابس الصخر جلمدا

قاصدا بذلك أن القلب الذي لا ينبض بالحب يشبه الصخر الذي لا حياة فيه ولا روح، والقلب الذي لا تحرقه لوعة الحب هو مجرد حجر أملس لا يعرف لغة المشاعر، والتاريخ يؤكد دائما وأبدا أن الحب لم يفرق يوما بين شاب لاه وشيخ معمم، أو بين قائد عسكري يقود الجيوش وآخر يعيش في أبراج من الخيال والوهم.

والحب يخلق في القلوب رغما عن أصحابها... كما قال نزار قباني:

تلومني الدنيا إذا أحببته كأنني أنا خلقت الحب واخترعته

وفي هذه الحلقات... نعرض جانبا من رسائل مشاهير السياسة والحرب والأدب والشعر لمن أحبوهم وتعلقوا بهم، وبادلوهم الغرام، لنرى كيف كان القائد الفرنسي نابليون بونابرت يكتب أجمل رسائل الحب إلى محبوباته،

وكيف كان الرئيس جمال عبد الناصر يخاطب زوجته من ميدان القتال، وكيف امتلك قيادي إخواني متشدد قلبا كقلوب العاشقين الحيارى. وهذه الرسائل تكشف الوجه الآخر لهؤلاء المشاهير الذين لم يتمكنوا من إغلاق قلوبهم أمام أنواء الحب التي لا تبقي ولا تذر.

بالرغم من أنه أشهر قائد عسكري فرنسي في التاريخ... واعتبره معاصروه أهم عسكري في عصره... وأسس إمبراطورية ضمت معظم غربي أوربا ووسطها.

إلا أن نابليون بونابرت - ١٧٦٩ - ١٨٢١- كان عاشقا ولهانا، وكان مبدعا في كتابة الرسائل، التي تقطر حبا ورومانسية وغزلا. كان نابليون - صاحب الانتصارات العسكرية المتعددة - فياض الشعور... رقيق القلب ... حلو الحديث ... جذاب الشخصية ... حتى قيل عنه: إنه المثل الأعلى للمحب.

أولى غراميات نابليون. كانت مع مدام تاليان الفاتنة الحسناء ... والتي كانت تعتبر أجمل نساء عصرها وهي أولى حبيباته فقد عشقها وأغرم بها ... بالرغم من بؤسه وفقره... وكان يتخذ من حبها له قوة ... وكان يطلب منها أن تبتاع له ملابسه الخاصة فكانت تلبي رغباته وتسدد حاجياته مسرورة طائعة.

ظلت هذه العلاقة قائمة بينهما سنوات طويلة حتى بعد زواجه من جوزفين ... ولما رأى أن الصلة أصبحت وثيقة بينها وبين زوجته. أمر جوزفين بقطع علاقتها بها خشية أن تلوث اسمها وسمعتها.



عقدة نابليون

عقدة النقص لدى نابليون التعالي والتكبر عقدة نابليون:

ما هي عقدة نابليون ؟

هي شعور الفرد بالتوتر والضيق بسبب قصر قامته ..وأطلق عليها عقدة نابليون لأن نابليون كان يشعر بعيب خلقي ويظن أنه قصير القامة ..وهذا جعله يعوض نقصه الجسمي بحب التسلط والجبروت والطغيان في الحكم (علما بأن طول نابليون كان ١٦٨ cm وهو معدل الطول الطبيعي هذه الأيام).

يقال: إنّ هتلر وموسوليني وفرانكو وستالين كانوا على شاكلة نابليون من قصر القامة ..حاولوا تعويض شعورهم بهذا النقص من خلال الحصول على قوة الشخصية ، وجمع النفوذ السياسي في سلطتهم بعد أن عز عليهم أن يغيروا ما وهبتهم الطبيعة إياه من أجسام وقامات!

كيف تعرف أن الشخص مصاب بعقدة نابليون ؟

الأشخاص الذين يعانون من عقدة نابليون تجدهم يعمدون إلى تعليق الصور في حائط منزلهم في مستوى منخفض جدًا ، مقارنة بالأشخاص الذين من نفس طولهم ! ..حتى أحيانا يصل ذلك إلى تصميم المنازل، فيعمدون إلى بناء بيوتهم بمستوى منخفض جدا ..يحاولون مثلا العراك مع أشخاص أكبر منهم بنيانا وأقوى جسمًا فقط حتى يقنعوا أنفسهم ومن حولهم أنهم أقوياء رغم قِصر قامتهم!

جدير بالذكر أن إحساس النفس بالراحة ومحاولة إقناع النفس شيء جميل ، ولكن حينما يكون شغلنا الشاغل ، ونصبح مهووسين بإقناع الآخرين أننا أذكياء أو أقوياء أو غيره سيتطور ذلك إلى مرض نفسي ، وهذا هو ما يسمى بعقدة النقص ، وعلم النفس جدير بأن يعالج كثير من هذه الحالات التي لها تأثير سلبي على الشخص.

ولعقدة النقص أنواع ..وفي هذا الموضوع أحببت التحدث قليلًا عن ما قرأته عن عقدة خطيرة تسمى بعقدة التكبر والغرور.

فتعرف هذه العقدة على أنها : محاولة للشخص المصاب بالعقدة على أن يتغلب على الشعور بالنقص والضعف إلا أن محاولته بالتعويض هذه توصله إلى القوة والتعالي والتكبر والغرور وصفة التعالي والغرور صفة كريهة نهى عنها الله سبحانه وتعالى في قوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ (لقمان الآية – ١٨).

أسبابها:

الشعور بالضعف داخلياً ومحاولة تعويض هذا النقص والضعف الذي يشعر به.

شعور المرء بأن غيره لا يثق في قدراته ..ورفض هذا الشخص المصاب بالعقدة أن يكون غيره أفضل منه فيحاول بأي طريقة أن يبين العكس ..فتتطور هذه المحاولة منه والتعويض لجانب النقص منه إلى مشكلة نفسية وصفة سيئة منبوذة من المجتمع.

مظاهر التعويض:

تجد هذا الشخص يتحدث عن نفسه كثيرا.. وتكثر كلمة أنا في حديثه ..تجده دوما يتكلم عن انجازاته وتحقيقاته بدون أن يُسأل عنها.. يهوى مقارنة نفسه بالآخرين وإثبات أنه الأفضل دوما لا يتحمل أن يكون

مخطئا أبدا..

دائما يتحدث على أنه نال إعجاب فلان وعلان ..وتراه دوما يبحث عن عبارات المدح والثناء.

يجب التفريق بين صفتين : الثقة بالنفس والغرور

فالثقة بالنفس تعني النجاح ، والقدرة على تجاوز الصعوبات والمواقف المحرجة ، والحكمة في التعامل ، وتوطين النفس على تقبّل النتائج مهما كانت ، وهذا شيء إيجابي.

أمّا الغرور فشعور بالعظمة وتوهّم الكمال ، أي أنّ الفرق بين الثقة بالنفس وبين الغرور هو أنّ الأولى تقدير للإمكانات المتوافرة ، أمّا الغرور ففقدان أو إساءة لهذا التقدير .

كيف نتعامل مع من لديه هذه العُقدة وكيف نساعده على التخلص منها؟

من المهم أن ندرك أنه لا بد منا أن ننظر إلى الشخص هذا ابتداءً نظرة المشفق عليه الرؤوف به كون عقدته هذه مرض نفسي.

قد يغفل صاحب هذه العقدة عن مشكلته هذه فكثيرًا منا يغفل عن عيب في شخصيته ولا يستدل عليها إلا بعد أن يشير إليه شخص مقرب منه يثق فيه..لذلك يجب دوما أن نحسن الظن بهم فالشخصية الإنسانية شخصية معقدة يصعب تفسيرها بدقة.

إذا كان الشخص هذا مقربًا إليك ، فحاول دوما تذكيره بالتواضع، وكيف أن هذه الصفة محببة لدى الجميع ..قم بتذكيره كيف كان الرسل والصحابة والتابعون والسلف الصالح على سعة من العلم والعظمة ..ورغم ذلك كانوا على درجة كبيرة من التواضع.



نابليون القائد العسكري

من هو نابليون

قائد عسكري وإمبراطور فرنسي، ولد في جزيرة كورسيكا ، وكانت فرنسا استولت على جزيرة كورسيكا قبل ولاته بخمسة عشر شهرا، وكان نابليون وطنيا متطرفا، وعندما حدثت الثورة في فرنسا ، جاءت فرصة نابليون في سنة ١٧٩٣ عندما حاصر الفرنسيون مدينة تولون واستردوها من البريطانيين، وكان نابليون قائدا للمدفعية بارعًا ، وقد عدل عن نزعاته الوطنية وأصبح مخلصا، واكتسب احترام الجميع ، وأصبح قائدا للجيش الفرنسي في إيطاليا ، وأصبحت انتصاراته كبيرة ، وحكم أوربا بأسرها تقريبا، وأرسل نابليون إلى مصر بهدف القضاء على تجارة إنكلترا مع الهند، ولكن حملته انتهت بالفشل أمام الأسطول الإنجليزي بقيادة نيلسون في معركة النيل، فعاد إلى فرنسا، ثم أعلن بعدها نفسه مستشارًا أول لمدة عشر سنوات ثم لقب بالإمبراطور، ودخل الحرب عام ١٨٠٥ ثانية ضد أعظم ثلاث قوى وهي: بريطانيا و النمسا و روسيا، فنجح في دحر النمسا وروسيا في إسترلتين، ثم هزم بروسيا في جينا عام ١٨٠٦، وتحدت روسيا حلف نابليون فهاجمها عام ١٨١٢، متغلبا على الجيش الروسي، ولكنه عندما دخل موسكو كان أهلها قد دمروها ، وكان جيشه جائعا تعبا يعاني من برد الشتاء في روسيا، وأخيرا هزم هذا الرجل عام ١٨١٥ ، ونفى بعدها إلى جزيرة القديسة هيلينا حيث مات بسرطان المعدة.

نابليون وبيت المقدس:

تذكر بعض المصادر التاريخية أن نابليون بونابرت زار بيت المقدس سنة ألف وسبعمائة وثمان وتسعين أي قبل وقت قصير من مغامرته الفاشلة في فلسطين، والتي هدف من خلالها إلى تأمين حملته في مصر ، وذلك بمبادرة ذاتية منه ، إذ يؤكد مؤرخو الحملة الفرنسية ، أن فلسطين لم تكن من بين أهدافها ، وأن وجود الفرنسيين في مصر كان كفيلا بتحقيق أحد أهم أهداف الحملة ، وهو مواجهة النفوذ البريطاني ، المتزايد ، والتشويش على طرق التجارة البريطانية .

نشأت فكرة مهاجمة فلسطين كنوع من الحل لمصير الحملة الفرنسية البائسة، فقد اقترحت الحكومة الفرنسية ثلاثة حلول على نابليون ، إما البقاء في مصر والدفاع عنها في مواجهة التحالف العثماني، الإنجليزي، الذي انضمت إليه روسيا، وإما التوجه لمهاجمة الهند ، وإما الزحف إلى القسطنطينية .

وهي حلول لم تكن تلائم القوة الفرنسية الضعيفة ، والتي لا تستطيع تحقيق أي من هذه الأهداف وأيسرها البقاء في مصر .

وصلت هذه الحلول إلى بونابرت أثناء حصاره عكا .ما يعني أنه بادر ذاتيا بالهجوم ، في شباط من عام ألف وسبعمائة وتسعة وتسعين بواسطة ثلاثة عشر ألف جندي ، فاحتل العريش ، ثم خان يونس فغزة . وتوجه لاحتلال اللد الرملة .

في بيت المقدس ، بدأت الاستعدادات لمواجهة الفرنسيين . إذ أن سقوط الرملة يعتبر عادة إيذانا بالهجوم على القدس . ولكن نابليون ، وبدل التوجه إلى بيت المقدس والتورط في الجبال المحيطة بها ، اختار الهجوم على يافا ، لتبدأ نهاية حملته عمليا .

صحيح أن الحملة الفرنسية تحطمت أمام أسوار عكا . لكن نهايتها ارتسمت بمجزرة يافا .

في آذار من العام نفسه احتل نابليون يافا بعد قتال استمر ثلاثة أيام، وبعد القتل والنهب والهتك ، وجد جنوده ثلاثة آلاف أسير في أبراج المدينة، فأمر بقتل ألفين وخمسمائة منهم في مجزرة وحشية ، سوف تنقلب آثارها عليه، فتفسخ جثث الأسرى مع جثث ألفين استشهدوا أثناء الدفاع عن المدينة ، أدى إلى انتشار الطاعون الذي أصاب الفرنسيين . وشكل عاملا إضافيا لهزيمتهم إلى جانب صمود عكا .

بعد مجزرة يافا ، تزايدت الاستعدادات في القدس لتنظيم الدفاع عنها . ولكن بدل أن يرسل نابليون جنوده إلى المدينة ، أرسل كتابا طويلا ، يشبه الكتب التي وجهها إلى المدن الأخرى . وفيها كثير من التملق ، وكثير من التهديد أيضا . فقد اختتم كتابه إلى أهل القدس مطالبا بتسليم المدينة . وتلقى ردا دبلوماسيا ذكيا . كان المقادسة على ما يبدو واثقين من صلابة عكا ، كما أنهم أرادوا كسب مزيد من الوقت ، فكتبوا إلى نابليون ، أنهم لا يرغبون في الحرب لأن بلدهم مقدسة ، وبها أماكن مقدسة إسلامية ومسيحية ولا يريدون للحرب أن تدمر هذه الأماكن .

وغير ذلك فهم تابعون لولاية عكا . ومن يستطيع السيطرة عليها ، يكون بإمكانه إصدار الأوامر إلى القدس .

راهن نابليون على سقوط بيت المقدس بعد سقوط عكا ، ولذلك وجه قواته إلى حيفا فاحتلها ثم احتل الناصرة ، وبدأ يضرب الحصار على عكا برا لأن الأسطول الإنجليزي المتحالف مع العثمانيين منع حصارها البحري ، وأبدى واليها عبد الله الجزار صلابة في الدفاع عنها مع جنود الحامية وأهل عكا ، ما أدى إلى فشل نابليون في احتلالها وبالتالي فشل حملته كليا إذ اضطر

إلى مغادرة فلسطين، وترك لأحد نوابه : كليبر ، تدبر أمر انسحاب الجنود إلى مصر .

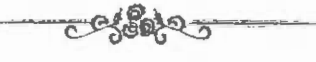
لا يكتمل الحديث عن الحملة الفرنسية على فلسطين دون الإشارة إلى علاقة نابليون بالصهاينة وسيلة إلى إيجاد موطن قدم لهم في فلسطين إبان حملته تلك .

فقبل تحرك الحملة من فرنسا إلى مصر ، تلقى بول باراباس ، عضو حكومة الإدارة في باريس من صديقه توماس كوريت ، الرأسمالي اليهودي الأيرلندي، رسالة ينصحه فيها بالاستفادة من اليهود الذين وصفهم بأنهم : يقدمون لكم عنصرا يمكن الاعتماد عليه في الشرق .

وضع الاقتراح أمام نابليون الذي التقى شخصيات يهودية، ما لبثت أن أصدرت بعد اللقاء بيانا تدعو فيه إلى إقامة مجلس ينتخبه اليهود في خمسة عشر بلدا، ليقرر ما يجب عمله . وإبلاغ ذلك إلى الحكومة الفرنسية . كما دعت إلى إقامة وطن يهودي بالاتفاق في فرنسا ، في إقليم الوجه البحري من مصر ، مع حفظ منطقة واسعة المدى ليمتد خطها من مدينة عكا إلى البحر الميت ومنه إلى البحر الأحمر.

وفي نيسان من عام ألف وسبعمائة وتسعة وتسعين وأثناء حصار عكا ، نشرت الجريدة الرسمية الفرنسية بيانا من نابليون يدعو فيه اليهود إلى مؤازرة فرنسا ، وانتهاز فرصة وجوده في فلسطين لتحقيق آمالهم في التواجد ما بين عكا والإسكندرية .

كان نابليون يريد دعم الرأسمالية اليهودية ، وعندما فشلت حملته ، كانت بريطانيا التقطت المسألة وبدأت العمل من أجلها .

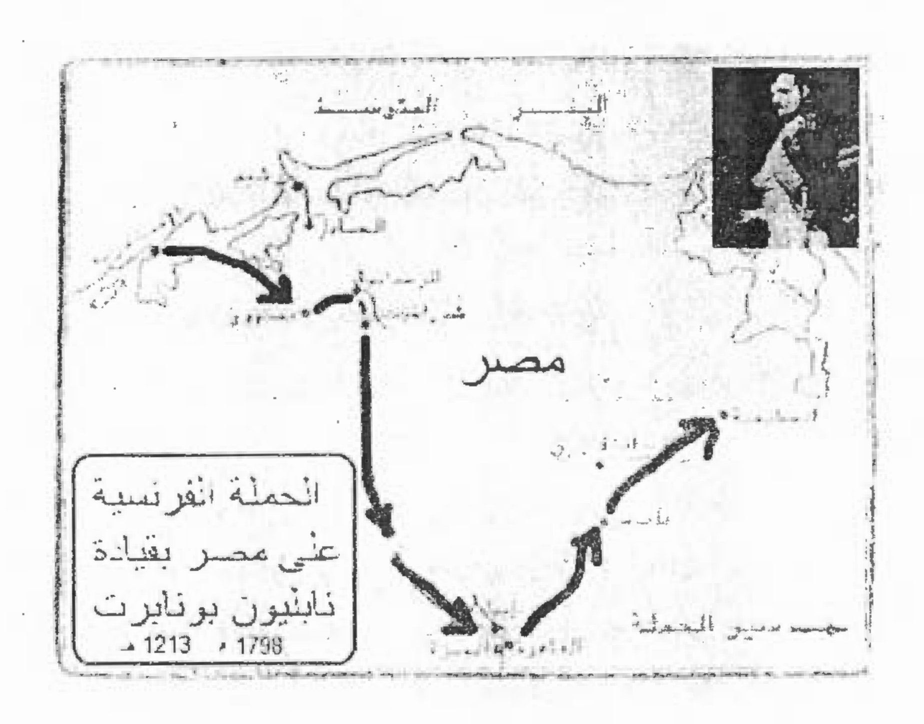


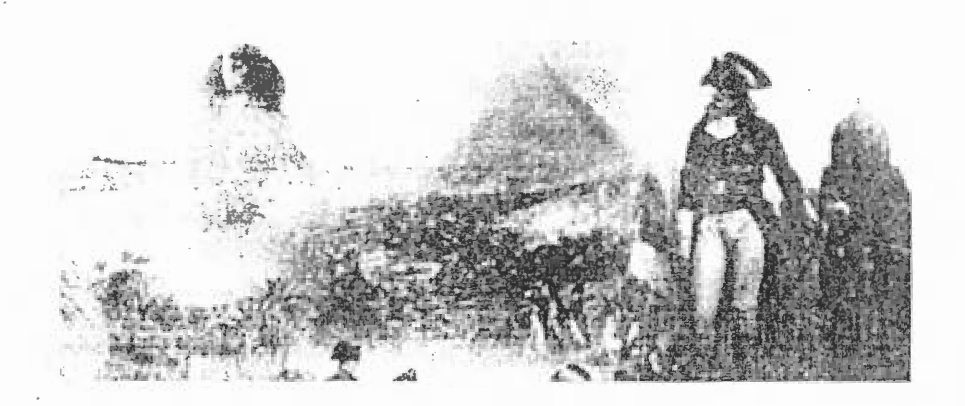
حملة نابليون بونابرت على مصر (١٧٩٨ - ١٨٠١ م)

علاقة نابليون بالشرق العربي:

للحملة الفرنسية على الشرق، أو حملة نابليون على مصر عام ١٧٩٨، كان أكبر الأثر وتعتبر نقطة تحول هامة في تاريخ الشرق الأوسط الحديث بشكل عام وتاريخ مصر وفلسطين بشكل خاص. خلال مقالي هذا سأتناول بالدراسة والتحليل العلمي والموضوعي أسباب ودوافع الحملة، سير الحملة ونتائج الحملة، بشكل يستطيع من خلاله القارئ والباحث أن يستخلص ويستنتج مدى تأثير الحملة الفرنسية على الشرق ومدى أهميتها، ولماذا الحملة الفرنسية على مصر وفلسطين تحتل حيزًا وجزءًا هامًا من كتب ومصادر التاريخ الحديث لمنطقة الشرق الأوسط؟ ومدى التغيرات والتحولات التي واكبت المنطقة برمتها، خلال فترة الحكم الفرنسي وبعده.

في صيف عام ١٧٩٨، وبالتحديد في ١٩ أيار سنة ١٧٩٨، خرجت قوات معززة من الجيش الفرنسي من مدينة طولون في جنوب فرنسا، وهذه القوات وُضعت تحت قيادة ومسؤولية ضابط صغير السن آنذاك في الجيش الفرنسي، وعبقري بالتخطيط والتكتيك العسكري، ويدعى نابليون بونابرت(١) (Napole'on Bonaparte)، عُرف فيما بعد هذا الجيش بـ جيش الشرق الفرنسي (Arm'ee d'orient)، وكان قوام وتعداد جيش نابليون آنذاك ٣٦٨٢٦ جنديًا وضابطًا، يرافقهم حوالي ١٢٠٠ عالم وخبير فرنسي. وكان هدف قوات الحملة الفرنسية احتلال مصر وبلاد الشام وذلك للسيطرة على الطريق التجارية للهند ورفع شأن فرنسا كدولة عظمى واستعمارية في أوربا.


البحر المتوسط
مصر
الحملة الفرنسية
على مصر بقيادة
نابليون بونابرت
1798 م 1213 هـ



قبل وصول قوات الجيش الفرنسي إلى مصر، احتلت هذه القوات جزيرة مالطة التي كانت تحت حكم فرسان القديس يوحنا، والذين كانوا تحت حماية قيصر روسيا، ومن ثم تابعت الحملة سيرها نحو مصر. وبالرغم من تعقب الأسطول الإنجليزي بقيادة الأميرال نلسون (Nelson) لتحركات الأسطول الفرنسي، إلا أن الأسطول الإنجليزي لم يتمكن ولم ينجح بمعرفة هدف ووجهة القوات الفرنسية.

في ٢١ تموز سنة ١٧٩٨ نزلت القوات الفرنسية بميناء الإسكندرية، وفي أولى المعارك بالقرب من الأهرام – معركة الأهرام – اشتبك الجيش الفرنسي بقيادة نابليون مع قوات المماليك، وكان الانتصار في هذه المعركة حليف القوات الفرنسية. ورغم أن قوات الأسطول الإنجليزي تعقبت مسيرة القوات الفرنسية واشتبك الطرفان في معركة أبي قار، التي تغلب فيها الأسطول الإنجليزي بقيادة نلسون والذي استطاع إبادة الأسطول الفرنسي عن بكرة أبيه، لكن ذلك لم يعرقل ويمنع نابليون من فرض سيادته وسيطرته على مصر.

أسباب الحملة:

لحملة نابليون على مصر وفلسطين فيما بعد عدة أسباب، منها ما يتعلق بفرنسا (أسباب داخلية) ومنها ما يتعلق بالوضع الدولي والمصالح التجارية والسيادة على المناطق الغنية والإستراتيجية (أسباب خارجية). والمصادر التاريخية تشير إلى أسباب الحملة الفرنسية بالعوامل التالية:

أولا: أطماع فرنسا الاستعمارية بفرض سيادتها وسيطرتها على الطريق التجارية القصيرة بين البحر المتوسط والهند والتي تمر بالشرق الأوسط.

ثانيًا: الانتقام من بريطانيا، العدو الرئيسي لفرنسا في تلك الفترة والتي أعلنت الحرب على فرنسا، واستمرار التنافس الاستعماري القديم بينهما، وحينما فشلت محاولات فرنسا بمهاجمة بريطانيا واحتلالها، فالشرق الأدنى ومصر، كان ميداناً آخر للمس وإلحاق الضرر بإنجلترا العظمى.

ثالثًا: كانت مصر تعتبر أغنى ولايات وأجزاء الإمبراطورية العثمانية من ناحية اقتصادية وتجارية، عدا عن كونها مركزًا إستراتيجيًا وتجاريًا مُهمًا ومصدرًا للمنتجات الزراعية بسبب خصوبة أراضيها وإمكانية استغلالها لإنتاج المحاصيل الزراعية في المستقبل.

رابعًا: ضعف الإمبراطورية العثمانية والسلطة في إستانبول وسقوط هيبتها كدولة قوية وعظمى بأعين الدول الأوربية.

خامسًا: البحث عن فتح أسواق جديدة لتصريف البضائع الفرنسية والسلع المصنعة من فرنسا.

سادسًا: اضطهاد التجار الفرنسيين من قبل المماليك الموالين لإنجلترا. فكثرة الاعتداءات المتكررة من قِبل حكام مصر على التجار الفرنسيين، دفع بالحكومة الفرنسية للعمل على توفير الحماية لرعاياها والإعلان المباشر لفرنسا من إرسال حملتها إلى مصر (الهدف المعلن) هو توفير الحماية للتجار الفرنسيين من ظلم واعتداء المماليك عليهم، وليس هدف الحملة هو الاعتداء على أملاك السلطان العثماني.

سابعًا: سعي وكره رجال حكومة الدايركتوار – الحكومة الفرنسية – لنابليون القائد العسكري الذي نبغ بالحنكة والتكتيك العسكري، وسعيهم للتخلص من وجوده في فرنسا وإبعاده إلى منطقة بعيدة عن مركز السلطة، على أمل ألا يعود مطلقًا إلى فرنسا.

ثامنًا: الطموح والأطماع الشخصية لنابليون بونابرت بإقامة إمبراطورية فرنسية عظمى، تكون صاحبة السيادة في الشرق والغرب بدون منازع.

تاسعًا: الوضع السياسي والعسكري الدولي عشية الحملة، كان ملائمًا لخروج حملة عسكرية على مصر، فالسلطنة العثمانية ضعيفة وغير قادرة على الدفاع عن ولاياتها وأراضيها وروسيا القيصرية والنمسا منشغلتان بالحرب فيما بينهما باقتسام أراضي بولندا وبريطانيا عدوة فرنسا ولعدم معرفتها بوجهة الحملة، ستركز طاقاتها وقوتها بالدفاع عن بريطانيا والجزر البحرية التابعة لها، ولم تأخذ بالحسبان إمكانية السيطرة الفرنسية على الطريق التجارية للهند، مركز بريطانيا التجاري والاقتصادي.

جميع هذه الأسباب وغيرها، تعتبر الأسباب الحقيقية والرئيسية لحملة نابليون على الشرق (مصر والشام).

مصر والشام عشية الحملة الفرنسية:

بلاد الشام ومصر عشية الحملة الفرنسية كانت تخضع لسيادة وسيطرة الإمبراطورية العثمانية وذلك منذ عام ٧/ ١٥١٦م، حينما احتل السلطان العثماني سليم الأول (١٥١٢-١٥٢٠) بلاد الشام ومصر وبعد قضائه على السلطة المملوكية، ومنذ ذلك التاريخ ضمت عاصمتي الخلافة المملوكية السابقتين: دمشق والقاهرة، لسلطة ونفوذ الخليفة العثماني، الذي أصبح يُعرف ويلقب بحامي الحرمين الشريفين.

خلال هذه الفترة منذ الفتح العثماني وحتى الحملة الفرنسية على مصر (١٧٩٨)، شهدت المنطقة الكثير من الأحداث والتغيرات، بلغت ذروتها بفترتي السلطان سليم الأول، والسلطان سليمان

القانوني (١٥٢٠-١٥٦٦)، فخلال فترة هذين السلطانين وصلت السلطنة العثمانية إلى أوج ذروة قوتها وتوسعها في آسيا وأوربا وامتازت بقوة السلطة المركزية في إستانبول، لكن الوضع لم يبق كذلك في فترات لاحقة، خاصة حينما تولى أمور الخلافة والسلطنة، سلاطين ضعفاء وأمور الدولة أديرت تارة من قبل الوزير وتارة أخرى من قِبل جنود الانكشارية أو الحُكام المحليين.

خلال فترة الحكم العثماني قُسمت البلاد والمناطق العربية إلى ولايات إدارية، يحكم كل ولاية وال يعينه السلطان العثماني، وبلاد الشام شملت أربع ولايات وهي: الشام، حلب، طرابلس وصيدا. أما مصر فاعتبرت جميعها ولاية واحدة.

الحكم العثماني للشام ومصر وبقية الأقطار العربية دام قرابة أربعمائة سنة، وخلال هذه الفترة التاريخية نكاد لا تُذكر تغيرات اجتماعية جذرية أو نهضة حضارية نتيجة للحكم العثماني، وإنما الوضع لم يكن في الحقيقة سوى استبدال حكم المماليك بحكم العثمانيين، والتأثير العثماني كان في الواقع سطحيًا وهامشيًا على الشعوب العربية واهتم السلاطين العثمانيون بالإبقاء على الوضع السائد مقابل تقديم الطاعة ودفع الضرائب للخزينة العثمانية في اسطنبول، دون السعي والاهتمام لإدخال التطويرات والبناء والعمران اللازم للسكان المحليين. وإذا استثنينا بعض الحركات الانفصالية لبعض الأمراء والحكام المحليين، كالشهابيين في جبل لبنان وظاهر العمر في فلسطين، وفي مصر لم يختلف الوضع كما هو عليه في الشام. فمع ضعف السلاطين العثمانيين زاد نفوذ الفئات المحلية بشكل بارز، وفي مصر تجلى ذلك بازدياد نفوذ المماليك، كحكم علي بك ومحمد بك أبي الذهب، حتى نزول قوّات نابليون في الإسكندرية عام ١٩٩٨، ومع الغزو الفرنسي لمصر يعتبر في الواقع بداية النهاية لحكم المماليك في مصر.

نابليون يحتل مصر:

في أوائل شهر تموز عام ١٧٩٨ وردت إلى القاهرة أنباء نزول قوات نابليون بونابرت في الإسكندرية الذي بدأ في ١ تموز، وحينما لم ينجح سكان المدينة بالدفاع عنها، احتل نابليون وجيشه الإسكندرية ليبدأ بناء الحجر الأول في طريق السيطرة الفرنسية على مصر لفترة تقارب الثلاث سنوات، وهذه الحقبة التاريخية رغم قصر مدتها سيكون تأثيرها على مصر والمنطقة مُهماً وذا تأثير لعدة أجيال فيما بعد، وعن ذلك ستتطرق بتوسع في سياق مقالنا لاحقاً.

بعد أن نجح نابليون بفرض سيطرته على الإسكندرية وبعد تدبير أمورها الإدارية، توجه على رأس جيشه لاحتلال عاصمة البلاد القاهرة. وفي أولى المعارك البرية بالقرب من الأهرام، اشتبك الجيش الفرنسي بقوات المماليك، عُرفت هذه المعركة فيما بعد بمعركة الأهرام والانتصار فيها كان حليف نابليون، إذ تمكن الجيش الفرنسي من إخضاع والتغلب على الجيش المملوكي وتمّ ذلك في ٢١ تموز ١٧٩٨، وواضح أن لانتصار القوات الفرنسية المدربة والمجهزة بالأسلحة الحديثة والمدافع على جيش الخيالة المملوكي، كانت عدة أسباب وعوامل لا مجال هنا للدخول والتوسع في أسبابها ونتائجها والخطة العسكرية وما إلى ذلك. المهم أن انتصار الفرنسيين في معركة الأهرام فتحت أمامهم الطريق لاحتلال القاهرة، وتمّ ذلك للفرنسيين في ٢٢ تموز ١٧٩٨ . وبالرغم من أن الجنرال نلسون قائد الأسطول الإنجليزي، نجح في تعقب الحملة الفرنسية ونجح في أن يبيد الأسطول الفرنسي عن بكرة أبيه في معركة أبي قير البحرية (أو معركة النيل كما تُسمى ببعض المصادر التاريخية)، شرقي الإسكندرية وتمّ ذلك في ١ آب ١٧٩٨، مما أدى إلى قطع الطريق البحرية بين نابليون وقواته بمصر مع

فرنسا، لكن بالرغم من ذلك استطاع نابليون بونابرت من فرض سيطرته وسلطته على مصر بعد أن انتزع أمور الحكم والسلطة من المماليك.

مؤرخ ومعاصر أحداث الحملة الفرنسية لمصر، عبد الرحمن الجبرتي، سرد بمؤلفه وكتابه القيّم عجائب الآثار في التراجم والأخبار الوقائع التفصيلية لبداية الاحتلال الفرنسي للإسكندرية والقاهرة، والمنشور الذي وزعه نابليون على السكان المحليين كُتب وطبع باللغة العربية، يشرح فيه أسباب قدومه لمصر، وكأن هدفه ليس احتلال مصر أو مقاومة السلطان العثماني وإنما العكس تمامًا، مساعدة السلطان وأهل مصر من جور وظلم المماليك، بالرغم من أن الجبرتي كان معادياً للغزو الفرنسي وبرز ذلك بأسلوب كتابته الناقد واللاذع للجيش الفرنسي وقائده، إلا أن كتابه يعتبر وبحق المرجع التاريخي الرئيسي والأول لوصف أحداث هذه الحقبة التاريخية المهمة في تاريخ مصر.

احتلال جيش فرنسي أجنبي لمصر وفرض سيادته وسلطانه على أبناء البلاد، ليس بالشيء المألوف والمقبول على أبناء الشعب المصري، ونابليون بونابرت وبالرغم من تأثره بأفكار الثورة الفرنسية من الحرية والديمقراطية وسيادة الشعب وسعيه لتطبيقها على الحكم والإدارة بمصر، لم يلق آذاناً صاغية ورغم محاولاته المتكررة لإظهار نفسه أمام الشعب بأنه صديق للمسلمين ولأبناء الشعب المصري وأنه في الواقع يناصر ويساند السلطان العثماني في إستانبول من ظلم وتمرد المماليك وسعي الإنجليز للسيطرة على مصر وسعيه للتقرب من العلماء ورجال الدين ونشر المطبوعات والمراسيم باللغة العربية وبأنه يعترف بسيادة السلطان العثماني على مصر وأنه لا ينبغي سوى تنظيم شؤون البلاد الداخلية وتحرير شعبها من المماليك، إلا أنه كان لإعلان السلطان العثماني في سبتمبر عام ١٧٩٨ الحرب على فرنسا وعقده

اتفاقيات تعاون ودفاع مع روسيا وبريطانيا، قد خيّب آمال نابليون وأشعل نار العداء لنابليون والجيش الفرنسي من قِبَل الشعب المصري.

مع أن نابليون حاول تنظيم أمور السلطة والحكم في مصر وإصلاح الجهاز الإداري، فقد أمر بإقامة ديوان ضمّ كبار المشايخ وعلماء الدين بداية في القاهرة ومن ثم في بقية الألوية والمحافظات. وهذه الدواوين تمتعت بصلاحية تنفيذية بما يتعلق بالأمور المدنية والحياة العامة للسكان كالمراقبة والإشراف على الأسواق ودوريات شرطة للمحافظة على الأمن العام ومراقبة عبور القوارب والبواخر في النيل وما شابه، ومن ثم تمّ انتخاب ديوان عام شمل ٢٥ عضواً، كان بمثابة البرلمان أو الجمعية التحضيرية والاستشارية لنابليون لإدارة شؤون مصر.

كما ذُكر سابقاً رغم التغييرات التي أدخلها نابليون في الإدارة والحكم لكن ذلك نُفذ بما يتلاءم والمصالح الفرنسية وبما يتماشى مع أهداف ومصالح نابليون نفسه. فألزم السكان المصريين برفع العلم الفرنسي في كل مكان، وتعامل الفرنسيون مع السكان المحليين كأسيادهم الجدد، والصلاحيات التنفيذية المهمة والواسعة بقيت من ضمن صلاحية القائد الأعلى وممثليه. وحينما أثقل نابليون أبناء الشعب المصري بالضرائب وانتشار أعمال القتل والنهب وأساليب المعاقبة الجماعية التي نفذها نابليون وجنوده بحق كل من يخالف أوامره، أثار هذا التصرف وهذه السياسة نقمة واستياء جماهير المصريين. وفي أكتوبر سنة ١٧٩٨ ثار سكان القاهرة ضد الفرنسيين وقامت جماعات من المصريين بمهاجمة دوريات الفرنسيين وتعطيل طرق مواصلاتهم واتبع القوات الفرنسية سياسة اليد الحديدية وأساليب القمع وإحراق القرى وما شابه لكل من خالفهم وقاومهم، كل ذلك لم يزد إلا من نقمة أبناء الشعب المصري ضد جيش الغزاة الفرنسي.

فشل نابليون بفرض السيطرة والهدوء في مصر ومحاولات المماليك الثأر من نابليون وجيشه بعد هزيمتهم أمامه بشن غارات بين الحين والآخر وإلحاق الخسائر في صفوف الجيش الفرنسي وإعلان السلطان العثماني الحرب والجهاد ضد نابليون وجيشه وتخوف نابليون من قدوم جيش عثماني ومواجهته في مصر، جعله يضع أمور مصر جانباً ويستعد لخطوته التالية، وهي مواجهة الجيش العثماني المتحالف مع الإنجليز في الشام وليبدأ نابليون بالتحضير والاستعداد لشن حملة عسكرية على فلسطين والشام في بداية سنة ١٧٩٩.

نابليون يغزو فلسطين:

في شهر شباط عام ١٧٩٩م/ ١٢١٤هـ، توجه نابليون على رأس جيش فرنسي قوامه ١٣,٠٠٠ جندي بحملة عسكرية نحو فلسطين، هدفها احتلال فلسطين والشام وإخضاعها للسيطرة الفرنسية ومن ثم القضاء على السلطنة والإمبراطورية العثمانية في إسطنبول، مع أن الهدف المعلن والرئيسي للحملة هو استباق الخطر العثماني وإقامة منطقة عازلة بين مصر وإسطنبول.

الجيش الفرنسي اتبع طريق الساحل الفلسطيني من الجنوب نحو الشمال ولم يتوغل في داخل البلاد، ربما لسهولة طرق المواصلات والإمدادات والقرب من البحر والموانئ الفلسطينية إذا احتاج الأمر. في ٢٢ شباط ١٧٩٩ احتل الجيش الفرنسي مدينة العريش وبعدها غزة، بعد مقاومة بسيطة للسكان المحليين وحاميتي المدينتين، لم تستطع إيقاف الزحف الفرنسي. وفي ٧/ ٣/ ١٧٩٩ سقطت مدينة يافا بأيدي الفرنسيين، بعد مقاومة جبارة وباسلة لسكان وحامية المدينة ضد قوات نابليون. وبعد

استسلام المدينة واحتلالها ارتكب نابليون وجنوده أبشع أعماله قسوة وغير إنسانية حين قتل وأعدم ما يزيد عن ألفين من حامية يافا وأعدموا آلاف الأسرى الآخرين بمجزرة رهيبة ارتكبتها القوات الفرنسية، ويقدر عدد الذين قُتلوا وأعدموا في يافا بنحو ٤٠٠٠ أسير من الجنود والمدنيين.

بعد احتلال مدينة يافا، تابع نابليون وجيشه تقدمهم شمالاً، عبر طريق الساحل الفلسطيني، والهدف احتلال مدينة عكا وإخضاع واليها، أحمد باشا الجزار، حاكم عكا آنذاك. خلال تقدم الجيش الفرنسي شمالاً واجهته صعوبات جمّة كالأمراض والتعب وقلة المؤن والعتاد، وحتى خسارة عسكرية بالقرب من نابلس. وفقط بفضل قوة الدعم الفرنسية التي وصلت من مصر لمساندة نابليون بقيادة الجنرال كليبر (Kl'eber)، استطاع الجيش الفرنسي مواصلة الطريق واحتلال مدينة حيفا في ١٧/ ٣/ ١٧٩٩، وقوة الدعم العسكري بقيادة كليبر هي التي استطاعت في الواقع احتلال وإخضاع مدينة حيفا حيث أن هذه القوة التي وصلت عن طريق البحر، سبقت نابليون وقوته بالوصول لمشارف حيفا. وقوات كليبر لم تلقَ في الواقع مقاومة تذكر من قِبل سكان المدينة بعد أن نزح عنها الجزار وجلب مدافع وحامية المدينة إلى عكا. وسكان حيفا اكتفوا بإيفاد أحد سكان المدينة وكان من أصل أوربي الذي انتظر قدوم الفرنسيين خارج بوابات ومداخل المدينة، وقامَ بتسليم الجنرال كليبر مفاتيح المدينة. وبعد ذلك التاريخ ١٧/ ٣/ ١٧٩٩، انضم نابليون وقوته إلى قوات كليبر لتتشكل قوة مشتركة للجيش الفرنسي بقيادة نابليون وكليبر، متوجهين نحو هدفهم التالي والصعب وهو احتلال مدينة عكا وإخضاع الجزار، وقد بلغ عدد الجنود الفرنسيين نحو ١٢ ألف جندي.

في ١٩ من آذار سنة ١٧٩٩، وصل الجيش الفرنسي لمشارف مدينة عكا وفرض الحصار حول المدينة وباشرَ بضربها بالمدفعية. فقط من الجهة

الغربية، من البحر والميناء، بقي مفتوحاً وتمركزت في الميناء قوة بحرية إنجليزية لمساندة الجزار. أثناء حصار نابليون لعكا تركزت قيادة الجيش الفرنسي، على هضبة إلى الشرق من مدينة عكا تدعى بتل الفخار (عرفت فيما بعد بتل نابليون).

حاكم ووالي عكا والمنطقة خلال الحصار الفرنسي كان أحمد باشا الجزار (١٧٧٥-١٨٠٤)، الذي اهتم بتحصين المدينة وبناء أسوار ضخمة حولها في وقت سابق، كان له الفضل الأكبر في صد وردع القوات الفرنسية عن المدينة. بالإضافة للأسوار اهتم الجزار ببناء مرابض للمدفعية وتشييد خندق حول الأسوار بعمق ثمانية أمتار. وتذكر المصادر التاريخية أن عدد المدافع على أسوار عكا بلغ ما يقارب ٢٥٠ مدفعاً، أثناء الحصار الفرنسي، هذا بالإضافة لاهتمام الجزار بجمع كميات كبيرة من الغذاء والقمح والأرز والمؤن وتوفير كميات كافية من المياه في الفترة التي سبقت وصول الجيش الفرنسي إلى عكا، وذلك استعداداً لوقت الحصار.

في ٢٣ من آذار ١٧٩٩، بدأت المعركة على عكا حيث طوّق نابليون المدينة وضرب حصاراً حولها من كافة الجهات البرية مستعملاً أثناء ذلك القصف المدفعي المكثف، خاصة من ناحية الجهة الشرقية والشمالية-الشرقية للمدينة، لكن نابليون وجنوده فشلوا في اختراق أسوار المدينة المنيعة وبطولة أحمد باشا الجزار المستميتة بالدفاع عن عكا وصد العدوان كان له الأثر المعنوي الكبير على حامية وسكان المدينة بالتصدي للقوات الفرنسية. وعندما لم تنجح محاولات نابليون باختراق أسوار عكا أصدر أوامره لجيشه بالاستمرار بحصار المدينة والحيلولة دون وصول مساعدة خارجية للجزار. وخلال حصار عكا نجح جنود نابليون بالاشتباك وإلحاق هزيمة بقوات الجيش العثماني القادمة من دمشق بمعركة قرب طبريا،

وكانت تلك القوات قادمة لمساعدة ومناصرة الجزار. وفي هذه الفترة القصيرة تمكنت القوات الفرنسية من احتلال طبريا والناصرة وصفد، وخلال فترة حصار عكا التي استغرقت أكثر من ٦٠ يوماً، استطاع الفرنسيون من السيطرة وبسط نفوذهم على منطقة الجليل الغربي والتي امتدت من حيفا جنوباً وحتى مدينة صور شمالاً، ومن البحر حتى شفا عمرو شرقاً. وبعد معركة جبل تابور في ١٦/ ٤/ ١٧٩٩، امتدت منطقة نفوذ الجيش الفرنسي لتشمل بقية مناطق الجليل ومرج ابن عامر.

ميناء الطنطورة كان الميناء الوحيد على الساحل الفلسطيني الشمالي الذي خضع لاحتلال الفرنسيين والذي خدم الجنود الفرنسيين لمغادرة سفنهم ليافا ولاستقبال العتاد والمؤن والمحافظة على اتصالهم بيافا وغزة. ميناء حيفا كان مغلقاً أمام الفرنسيين نتيجة الحصار الذي فرضه الأسطول الإنجليزي حوله، وميناء عكا كان تحت سيطرة قوات الجزار والأسطول الإنجليزي بقيادة الجنرال سيدني سميث (Sidny Smith)، الذي ساعد الجزار بتصديه بنابليون وبالدفاع عن عكا.

خلال حصار نابليون لعكا، استعمل وإستغل دير الرهبان الكرمليين على جبل الكرمل، كمستشفى لمداواة ومعالجة الجرحى والمرضى الفرنسيين، في حين تمت معالجة المرضى والجرحى من الجنود الفرنسيين المحاصرين لعكا في شفا عمرو، حيثُ تم تحويل قلعة سرايا ظاهر العمر إلى مستشفى عسكري لخدمة الجنود الفرنسيين.

بعد حصار دام ٦٢ يوماً حول عكا، من١٨/ ٣ – ٢١/ ٥/ ١٧٩٩، وبعدما فشل نابليون وجيشه ومدافعه باختراق أسوار المدينة المنيعة والدفاع البطولي لأحمد باشا الجزار عن عكا بمساعدة الأسطول الإنجليزي، وبعدما

رفض الأمير بشير الشهابي الثاني (لبنان) في الانضمام لنابليون والتحالف مع الفرنسيين ضد الجزار والعثمانيين، وبعدما باءت بالفشل محاولات وخطط الجنرال لويس كافرلي، المهندس الرئيسي لجيش نابليون المحاصر لعكا، لاختراق أسوار المدينة ولتفشي الأمراض خاصة الطاعون في صفوف الجنود الفرنسيين وقلة العتاد والمؤن والخسائر البشرية والمادية الفادحة التي تكبدها الجيش الفرنسي خلال فترة حصاره لعكا، قرر نابليون في ٢٠ أيار سنة ١٧٩٩ فك الحصار عن عكا وأمر جنوده برمي ما بقي معهم من قذائف على المدينة وأبنيتها، لاسيما قصر الجزار والمنطقة المحيطة به، مما ألحق دماراً كبيراً في أبنية المدينة، وبعد أن فك الجنود الفرنسيون مقر قيادتهم ومعسكرهم من تل الفخار، عادوا أدراجهم لمصر، حتى دون أن يشعر بذلك المدافعون عن عكا، وبعد أن ألقى الجنود الفرنسيون بمدافعهم الثقيلة وعتادهم وأسلحتهم للبحر تاركين عكا وعلامات الفشل والإرهاق والخسارة تلاحقهم. ومهما يكن من أمر فيمكننا استنتاج عجز وفشل نابليون بونابرت باحتلال عكا لسببين رئيسيين، الأول: أسوار المدينة المنيعة وتحصيناتها، والثاني: مساعدة الأسطول الإنجليزي بالعتاد والأسلحة للجزار، كان لذلك أكبر الأثر في دعم ورفع معنويات الجزار بتصديه للقوات الغازية. وبفشل نابليون بكسر شوكة الجزار واختراق أسوار عكا، تلاشت وتحطمت أحلامه باحتلال إستانبول والقضاء على الإمبراطورية العثمانية ولتبقى مقولته المشهورة مدوّنة على صفحات التاريخ: لقد أنستني عكا عظمتي، لو سقطت عكا لغيرت وجه العالم، فقد كان حظ الشرق محصوراً في هذه المدينة الصغيرة.

في طريق عودتهم نحو مصر، دمر الجنود الفرنسيون تحصينات الساحل وأبادوا الحقول المزروعة وتكبدوا الكثير من الخسائر في الأرواح، خلال

اشتباكهم مع أبناء العشائر والقبائل البدوية وسكان نابلس الذين تعرضوا لهم بطريق عودتهم،هذا فضلاً عن موت ومقتل أكثر من ثلث أفراد الجيش الفرنسي خلال الحصار حول عكا. ولا تزال حتى يومنا هذا لوحات القبور والمدافن على جبل الكرمل تحمل أسماء الضحايا الفرنسيين الذين لاقوا حتفهم بفترة الغزو الفرنسي على فلسطين. وفي ٢٢ آب عام ١٧٩٩، غادر نابليون ميناء الإسكندرية سراً إلى فرنسا، بعد أن ترك قيادة جيش الشرق وإدارة الأمور في مصر بأيدي الجنرال كليبر وبقية الجيش الفرنسي المنهار والضعيف الفاقد الأمل بالعودة حتى إلى فرنسا.وفي ٢٤ كانون الآخر عام ١٨٠٠ وقّع كليبر على اتفاقية العريش مع العثمانيين، التي نصت على جلاء القوات الفرنسية عن مصر.

وبعد بضعة أشهر من الاتفاق قُتل كليبر وخلفه على قيادة الجيش الجنرال مينو، الذي هزمه الإنجليز في معركة بالقرب من الإسكندرية في ٢١ آذار عام ١٨٠١.



لوحة قتل سليمان الحلبي لكليبر

وفي أعقاب هذه الهزيمة تمّ جلاء وعودة القوات الفرنسية عن مصر إلى فرنسا، ورجعت ولاية مصر لنفوذ السلطان العثماني وفقاً لصلح أميان المبرم بين بريطانيا وفرنسا. وفي أيلول سنة ١٨٠١، غادر آخر جندي فرنسي أرض مصر لتنتهي فترة تاريخية ذات تأثير بعيد الأمد على العلاقات بين الشرق والغرب. عُرفت بفترة الحملة الفرنسية على مصر.

نتائج الحملة وتقييمها:

لحملة نابليون على مصر وفلسطين، أو الحملة الفرنسية على الشرق كما تعرف ببعض المراجع التاريخية والتي استغرقت ما يزيد عن الثلاث سنوات، كان بالغ الأثر التاريخي والحضاري والعسكري والاقتصادي والتي غيرت تاريخ المنطقة برمتها. فمع نزول قوات نابليون بونابرت في الإسكندرية عام ١٧٩٨، تعتبر بداية النهاية لنفوذ المماليك في مصر ونشوء ما عُرف لاحقاً بالمسألة المصرية وبداية التدخل الأوربي في شؤون الإمبراطورية العثمانية والولايات العربية التابعة لها، وهذا ما تذكره كتب التاريخ وتعرفه بالمسألة الشرقية (Question The Eastern).

حملة نابليون على مصر كانت أول حملة أوربية مسلحة على الشرق الأوسط منذ الحروب الصليبية، وبداية التدخل الأجنبي المباشر في الشؤون الداخلية لولايات وشعوب المنطقة وانكسار الجيش الفرنسي في مصر برهن على أن اقتسام إرث الإمبراطورية العثمانية لن يتم لدولة أوربية واحدة ولا تستطيع فرنسا بمفردها، أو بريطانيا لوحدها من تحقيق ذلك دون التحالف مع بقية الدول الأوربية.

لعل النتيجة الأكثر أهمية وعمقاً تبقى بعدما فشل نابليون على مشارف عكا وانكساره ورجوعه خاسراً لفرنسا، تمّ في الواقع القضاء على مطامع نابليون بونابرت الشخصية، بالسيطرة على الشرق والطريق التجارية للهند

واحتلال أوربا الشرقية، بعد أن يتم القضاء على السلطنة العثمانية في إسطنبول قبل ذلك، وتحقيق حلمه وطموحه بإقامة إمبراطوريته العظمى في أوروبا والشرق على غرار الإسكندر المقدوني العظيم.

أمام الانتصار البطولي وصمود أحمد باشا الجزار بمساعدة ومؤازرة الأسطول الإنجليزي بقيادة سيدني سميث، وفشل نابليون والجيش الفرنسي أمام أسوار عكا، تلاشت طموحات ومآرب نابليون بالاستيلاء على بلاد الشام والشرق قاطبة، ونجاح الجزار رفع من منزلته عند السلطان العثماني وفي أعين السكان المحليين، وبعد الحملة الفرنسية، أصبح الجزار الحاكم المطلق والأقوى ليس في عكا فقط، وإنما في الجليل وجزء كبير من بلاد الشام، لذا تراهُ يُرقى تقديراً لانتصاراته ومساعدته للسلطنة العثمانية، من قبل الباب العالي العثماني لباشا على دمشق، بالإضافة لحكمه على صيدا وطرابلس والجليل وأصبحت عاصمته الرسمية مدينة عكا ولعلها الفترة الذهبية لهذه المدينة في تاريخها. فبعد الحملة الفرنسية لم تعد فلسطين وعكا مجرد ولاية عثمانية نائية بل أصبحت محطّا للأنظار ومركزاً للصراعات الدولية في أوربا ومن بؤر سباق التنافس والصراع الاستعماري بين الدول الأوربية الكبرى - بريطانيا وفرنسا - للسيطرة والتأثير في الشرق الأوسط.

نتيجة لاعتداء نابليون على أملاك الإمبراطورية العثمانية في مصر والشام، انضمت إلى تحالف الحلف الثاني سنة ١٧٩٨ مع بريطانيا وروسيا والنمسا ضد فرنسا بعد أن كانت تركيا من أقوى أصدقاء فرنسا قبل الحملة. والأعمال البربرية والقتل والإعدام الجماعي للأسرى والجنود والمدنيين التي قام بها نابليون وجنوده في مصر وفلسطين فضحت نوايا فرنسا الاستعمارية، التي كانت تتستر عليها بستار مساعدة الأقليات والشعوب المضطهدة حسبما وردت في نتائج الثورة الفرنسية والتغييرات الاجتماعية والدستورية والسياسية التي حققتها حين اندلاعها.

عندما غزا نابليون مصر (١٧٩٨) واستقر الفرنسيون في القاهرة والإسكندرية، أصبح تهديد نابليون للهند أعظم شغل شاغل للسياسة البريطانية. وبمغادرة نابليون لمصر سراً في آب عام ١٧٩٩ وحتى مغادرة آخر جندي فرنسي مصر في آب ١٨٠١، زال عملياً تهديد نابليون للقضاء على الحكم البريطاني في الهند وانتهى أمره. بعدها أضعفت الحملة الفرنسية من قوة ونفوذ المماليك في مصر.

من أهم نتائج الحملة الفرنسية بعد جلاء الفرنسيين بزوغ نجم محمد علي باشا وإقامته لولاية ودولة مستقلة في مصر – دولة محمد علي باشا – الحاكم والوالي العثماني الطموح والذي يعتبر وبحق مؤسس مصر الحديثة (١٨٠٥-١٨٤٩).

خلال فترة مكوث الفرنسيين في مصر وبعدها تعتبر هذه الفترة نقطة تحول وملتقى حضاري ما بين الغرب والشرق (خاصة بمصر)، وأدت إلى زيادة اهتمام الأوربيين بمصر خاصة والشرق عامة. فنابليون يعتبر أول من أحضر أول مطبعة عربية إلى مصر (في بولاق) وقد جلبها من الفاتيكان. واهتم العلماء والخبراء الفرنسيون الذين رافقوا الحملة بدراسة وفحص وتحليل مختلف وجوه الحضارة المصرية، خاصة أعضاء معهد مصر (Institut d'Egypte) الذي أقيم وتأسس في القاهرة بعد الاحتلال مباشرة وضمّ نخبة العلماء والخبراء الفرنسيين. فقاموا بإجراء مسح جغرافي وميداني لمصر وراقبوا نهر النيل ورسموا خارطة جغرافية لمصر، وقاموا بدراسة آثار مصر. وفي عام ١٧٩٩ عثر العلماء الفرنسيون على حجر رشيد الشهير وتمكن العالم الفرنسي شمبليون (Champolion) من فك وشرح الكلمات والرموز المكتوبة باللغة الهيروغليفية القديمة. وقد جمع العلماء الفرنسيون نتائج أبحاثهم ودراساتهم في مؤلف ضخم وقيم سُمي وصف مصر (L'Egypte Description de) الذي صدر في باريس عام ١٨٠٩، هذا فضلاً

عن نشوء وتطور مجال جديد في علم الآثار يهتم بالتجديد بالآثار المصرية (Egyptologie).

نتائج أخرى للحملة لا تقل أهمية عما ذُكر آنفاً، القضاء على الأسطول الفرنسي وخفض مكانة فرنسا كدولة بحرية في أعين الدول الأوربية، وبالمقابل ارتفاع مكانة بريطانيا كدولة بحرية عظمى لنجاح أسطولها في القضاء على الأسطول الفرنسي. بما يتعلق بالسلطان العثماني والجيش العثماني فإذا دلت نتائج الحملة على شيء، فإنها تشير إلى مدى الضعف والتفكك الإداري والعسكري للسلطنة العثمانية في إستانبول، في حين لم تستطع الدفاع عن أراضيها وممتلكاتها بقواها الذاتية، إلا بمساعدة دول أجنبية وإلى قيام وُلاة وحكام أقوياء فيما بعد، فاقت سلطتهم سيادة الدولة والسلطان العثماني والحديث عن محمد علي باشا في مصر، وأحمد باشا الجزار في فلسطين والشام.

أسماء وشخصيات ارتبطت بحملة نابليون:

(١) نابليون بونابرت (١٧٩٩-١٨٢١)، إمبراطور فرنسا الشهير وأحد عظماء التاريخ البشري الخالدين. وُلد في مدينة أجاكسيو بجزيرة كورسيكا. تلقى تعليمه وتدريبه العسكري في فرنسا، تخرج وهو في السادسة عشرة من عمره (عام ١٧٨٥) برتبة ملازم ثان في الجيش الفرنسي. في سنة ١٧٩٦. أصبح قائداً للجيش الفرنسي في إيطاليا وبفضل انتصاراته في الجبهة الإيطالية بين الأعوام ١٧٩٦/ ١٧٩٧، عاد إلى فرنسا بطلاً وطنياً. في سنة ١٧٩٨ قام بحملته الشهيرة على مصر ومن ثم على فلسطين، التي كانت نهايتها الفشل الذريع لنابليون وجيشه. بعد مغادرة نابليون مصر في أعقاب

فشله باحتلال عكا (١٧٩٩) عاد إلى فرنسا ليشارك في انقلاب عسكري مع آخرين كانت نتيجته قيام حكومة جديدة وتعيين نابليون القنصل الأول لفرنسا، وسرعان ما أصبح حاكماً دكتاتورياً بفرنسا.

أثناء حكمه لفرنسا أدخل إصلاحات جوهرية، خاصة في النظام الإداري والتشريعي، واهتم كذلك بإصلاح النظام المالي والقضائي، وأنشأ بنك فرنسا وجامعة فرنسا. ولعل أهم أعماله ما عُرف بدستور نابليون. عُرف عن نابليون قصر قامته، وعشقه للنساء وفشله بحياته الزوجية وذكائه النادر. أحرز بفضل نبوغه وعبقريته انتصارات باهرة في ميادين القتال والمعارك. توفي بمرض السرطان سنة ١٨٢١، بمنفاه في جزيرة سانت هيلانة في المحيط الأطلسي.

(٢) في ٢٣ آب سنة ١٥١٦م اشتبك الجيشان العثماني والمملوكي في مرج دابق، قرب حلب وفي هذه المعركة (مرج دابق)، هُزم الجيش المملوكي، وتوفي سلطان المماليك قانصوه الغوري، ونتيجة لانتصار العثمانيين في المعركة بسبب قوتهم العسكرية واستخدامهم بنادق الرصاص في المعركة، في حين اعتمد المماليك على سلاح الفرسان، ولانتصار العثمانيين فتحت أمامهم بلاد الشام. فبعد معركة مرج دابق احتل السلطان سليم الأول حلب وبعدها دمشق وبقية المدن والمناطق في الشام وفلسطين وحتى مصر.

(٣) عبد الرحمن الجبرتي (١٧٥٤-١٨٢٢)، ولد في القاهرة وكان ينتمي لأسرة من العلماء والمشايخ الأزهريين. عاصر حكم أواخر البكوات المماليك، وكان شاهد عيان للاحتلال الفرنسي لمصر (١٧٩٨) وعاصر حكم محمد علي باشا.

عينه نابليون عضواً في ديوان الأعيان الذي أنشأه لمساعدته في تثبيت حكمه في مصر، لكن الجبرتي كان حر الرأي في شخصيته ومقاوماً للظلم والطغيان. وعندما اشتدت خلافاته مع الفرنسيين، استقال من عضوية الديوان. قُتل في القاهرة في رمضان عام ١٨٢٢ بفترة محمد علي. كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار، يعتبر من أهم وأعظم تواريخ مصر في القرنين الثاني والثالث عشر للهجرة. ألف وترجم الجبرتي عدة كتب أخرى قبل وفاته.

(٤) تل نابليون (أو تل الفخار): تل وهضبة ترابية تبعد ١ كم إلى الشرق من أسوار مدينة عكا (بجانب ملعب كرة القدم البلدي). يعتقد أنه مكان عكا القديمة الكنعانية. استخدم التل جميع الفاتحين لضرب المدينة أمثال صلاح الدين الأيوبي وريكاردوس قلب الأسد، وكان آخرهم نابليون، حيث تركزت على التل مقر قيادته ومعسكر جيشه خلال فترة حصاره لعكا (١٧٩٩).

أجريت في الموقع حفريات أثرية كثيرة، تم الكشف خلالها على آثار وقبور قديمة، بعضها يعود للفترة الرومانية.

(٥) أحمد باشا الجزار (١٧٧٥-١٨٠٤): كان أحمد باشا الجزار مملوكاً بشناقي الأصل. ولد نصرانياً في البوسنة، ومعظم كتب ومراجع التاريخ تجهل سنة ولادته. اقترف وهو صبي جرماً أخلاقياً، فر على أثره إلى إسطنبول وهناك باع نفسه لنخاس يهودي، حيث باعه مع عدد من الصبيان في القاهرة، وكان من نصيب تاجر مصري أسلم على يديه وسمي (أحمد). خدم في مصر عدداً من الأشخاص والبكوات، من بينهم علي بك الكبير في

القاهرة، الذي عينه جلاداً في قصره، وقد أظهر من المواهب والتفنن في إنفاذ مهمته والرغبة بالقيام بها، مما أكسبه لقب الجزار، خاصةً بسبب بطشه الشديد ببدو إقليم البحيرة. في مصر نال الجزار رتبة الباكوية. انتقل بعد ذلك إلى الشام مع بعض مماليكه وكلف من قبل السلطات العثمانية بدمشق بحماية بيروت. وهناك تمرد على حاكمها الأمير يوسف الشهابي. وبعد القضاء على ظاهر العمر الزيداني عام ١٧٧٥، حاكم عكا والجليل، عين السلطان العثماني أحمد باشا الجزار محافظاً لعكا. وفي عام ١٧٧٦ عين واليًا على صيدا من قبل السلطان ومنح رتبة وزير ولقب باشا.

اتخذ الجزار عكا مركزاً له مستعيناً بجيش من المماليك المرتزقة، ولجأ إلى أعمال السخرة في تحصين المدينة. بلغ الجزار أوج مجده سنة ١٧٩٩ بسبب نجاحه في الوقوف والصمود لقوات الجيش الفرنسي وإيقافه لنابليون بعدم تمكينه من اختراق أسوار عكا ومواصلة زحفه لبقية مناطق الجليل والشام، وذلك بفضل بسالة الجزار ومساعدة الأسطول الإنجليزي له وتقديراً لنجاحه عينه لباب العالي منصب الولاية الرفيع وشملت ولايته معظم فلسطين والشام.

بعد جلاء القوات الفرنسية عن عكا عام ١٧٩٩، اهتم الجزار بالبناء والعمران وتوطيد سلطانه وحكمه، فاهتم بتشييد الأسوار حول عكا وبناء الكثير من المباني العامة والتي ما زالت قائمة حتى يومنا هذا، لعل أهمها: جامع الأنوار (الجزار)، خان العمدان، الأسوار، الحمام وغيرها.

توفي أحمد الجزار عام ١٨٠٤، وكان موته طبيعياً مما يعتبر بمثابة ظاهرة شاذة في تاريخ الولاة العثمانيين في أيامه.

(٦) لويس كافرلي: المهندس العسكري الرئيسي لجيش نابليون أثناء حصاره لأسوار عكا عام ١٧٩٩، وهو الذي خطط للحصار. قتل بطلقة رصاص من بندقية صياد، أطلقت عليه عندما كان يتجول بجانب أسوار المدينة الخارجية. مكان قبره لم يعرف وبقي مجهولاً حتى اكتشف مصادفة عام ١٩٦٩ ويقع بمنطقة المدرسة الزراعية (يد ناتان حاليًا) شمالي عكا، وكان يُظن قبل ذلك أنه مقام الغفاري (أو الكوفاني).

(٧) الطاعون: مرض ووباء خطير، عُرف في العصور القديمة. والطاعون عبارة عن التهاب حاد يصيب الجرذان والقوارض في البداية، ثم ينتقل للإنسان، وثبت أن الفئران هي الناقلة لوباء الطاعون. كان يتفشى وباء الطاعون كثيراً في المدن الحصينة المسوّرة بسبب اكتظاظ واحتشاد السكان، وبسبب موت الكثيرين من الطاعون سُمي بالموت الأسود في القرون الوسطى. في القرن السابع عشر انتشر الطاعون في أوربا وهلك فيه آلاف المرضى والمصابين.

تفشى الطاعون في بلاد الشام زمن الخليفة الأموي عبد الملك بين مروان، وفي شهر أيار عام ١٧٩٩ وأثناء حصار نابليون على عكا تفشى الطاعون في المدينة وفي صفوف الجيش الفرنسي، حتى امتلأت مستشفيات حيفا ويافا وجبل الكرمل بالجنود الفرنسيين المصابين بالطاعون. كما هلك عدد كبير من أفراد الجيش، عدا الذين أصيبوا بالهذيان والجنون، وكان ذلك من العوامل والأسباب المهمة التي أدت إلى انسحاب نابليون وفك حصاره عن عكا.

(٨) محمد علي باشا (١٧٦٩-١٨٤٩): ولد بمدينة قوله المقدونية وجاء إلى مصر مع قوة صغيرة من أهل قولة لمحاربة الفرنسيين، وكان آنذاك جندياً عثمانياً. بعد رحيل وجلاء الجيش الفرنسي من مصر (١٨٠١)، استطاع محمد علي باشا بحنكته ودهائه أن يكسب ثقة وتأييد الأعيان ومشايخ الأزهر وعامة الشعب المصري، ويتولى زمام أمور السلطة في مصر، حتى نودي به والياً في مصر عام ١٨٠٥.



(٩) جان فرنسوا شامبيليون (١٧٩٠-١٨٣٢): أحد العلماء الشباب الذين رافقوا حملة نابليون على مصر. بعد العثور على حجر رشيد المنقوش باللغات: الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية القديمة، نجح شامبليون بفك وكشف رموز ومعاني الكتابة المنقوشة على الحجر، واقترن اسمه بحجر رشيد واعتبر أشهر وأعظم العلماء الذين عرفوا رموز حجر رشيد. توفي وهو في الثانية والأربعين من عمره.



تواريخ الحملة الفرنسية

عام ١٧٩٨م:

- ٢١ تموز (يوليو): معركة الأهرام (إمبابة)، بالقرب من القاهرة بين القوات الفرنسية وجيش الخيالة المملوكي، هُزم بها المماليك واحتل الفرنسيون القاهرة في ٢٢ تموز.

- ١ آب (أغسطس): معركة النيل (أبي قير البحرية). بعد أن عثر القائد الإنجليزي نلسون على الأسطول الفرنسي في ميناء أبي قير، شرقي الإسكندرية، استطاع الأسطول الإنجليزي دون صعوبة في أن يُحطّم ويدمر الأسطول الفرنسي، بسبب عجزه عن الحركة وتكدسه في المرسى، وهكذا أمكن نلسون أن يقطع الطريق البحرية بين نابليون وقواته وبين فرنسا.



القائد الإنجليزي نلسون

عام ١٧٩٩م:

- شباط (فبراير): حملة نابليون على فلسطين وسوريا. غزا نابليون فلسطين طريق العريش وغزة، دخل يافا وفشل في الاستيلاء على عكا.

- ١٩ آذار (مارس): وصول الجيش الفرنسي إلى مشارف مدينة عكا وفرض الحصار البري حول المدينة.

- ٢٠ أيار (مايو): فك الحصار عن عكا، بعد أن فشل نابليون وجنوده باقتحام أسوار المدينة ورجوعه إلى مصر.

- ٢٥ تموز (يوليو): معركة أبي قير (البرية) بين قوات نابليون وقوات العثمانيين، يساندهم الأسطول الإنجليزي، لكن القوات الفرنسية استطاعت أن تتغلب عليهم وتلحق هزيمة ساحقة بالجيش التركي والإنجليزي.

- ٢٤ آب (أغسطس): نابليون يترك مصر عائدًا إلى فرنسا ويخلفه بقيادة الجيش الجنرال كليبر.

عام ١٨٠٠م:

- كانون الثاني (يناير): اتفاق العريش بين قوات كليبر والأتراك الذي نص على جلاء القوات الفرنسية عن مصر.

- آذار (مارس): الانتصار الفرنسي في عين شمس، وبداية التمرد الثاني في القاهرة.

- حزيران (يونيو): الجنرال كليبر يُقتل ويخلفه في القيادة مينو.

عام ١٨٠١م:

- ٢١ آذار (مارس): وصول القوات الإنجليزية إلى أبي قير وانتصارهم على مينو والقوات الفرنسية بالقرب من الإسكندرية.

- أيلول (سبتمبر): جلاء القوات الفرنسية عن مصر وعودتها إلى فرنسا.



الجنرال كليبر



الجنرال مينو

نابليون بونابرت الإنسان

مولد نابليون :

ولد نابليون في مدينة أجاكسيو ajaccio عاصمة كورسيكا في ١٥ من أغسطس سنة ١٧٦٩م، ويدعى أبوه كارلو ماير يادي بونابرت ، وهو من أسرة أصلها إيطالي ، وكانت جزيرة كورسيكا تاعبة لجمهورية في جنوه ، واستولت عليها فرنسا عام ١٧٦٨م، أي قبل ولادة نابليون بعام ، فهو إيطالي الأصل ، فرنسي المولد ، وهو ما لا يعرفه الكثيرون عن نابليون بن كارلو ماير يادي بونابرت.

نشأة نابليون بونابرت وكيف أصبح ضابطًا؟

كان بونابرت الأب أحد نبلاء إيطاليا الذين يسكنون جزيرة كورسيكا التي استعمرتها فرنسا من إيطاليا ، ولم يحصل من العلم إلا قليلا ، وعندما بلغت زوجته ليتيا الثلاثين من عمرها كانت قد أنجبت من بونابرت الذي تزوج مبكرًا ثمانية أبناء: خمسة من الأبناء وثلاث من البنات ، وجدير بالذكر أنه تربية ثمانية من الأولاد أمر ليس باليسير، ولهذا كان الأطفال يسمعون كل يوم حديث النقود ، مما دفعه إلى الاشتغال في خدمة فرنسا، الدولة التي استعمرت وطنه الصغير عشر سنوات متعاقبة ، فكان أن أصدر ملك فرنسا لويس السادس عشر أمرًا بأن يعلم اثنين من أولاده بإعطائهم منحة مجانية في مدارس النبلاء، على أن يتخرج أحدهما كاهنا والآخر ضابطًا..

وهكذا وقع اختيار بونابرت على يوسف أكبر أبنائه ليكون كاهنًا ، وعلى نابليون ليكون ضابطًا.

وهكذا بدأ نابليون حياته العسكرية بأن التحق بمدرسة برين الحربية المتوسطة، وعندما أنهى دراسته العسكرية بها التحق بالمدرسة الحربية العليا بباريس.

وجدير بالذكر أن نابليون قد ورث عن أبيه بونابرت خياله الواسع ومهارته الفائقة، كما ورث عن أمه ليتيا الشجاعة والزهو.

شخصية نابليون:

وإذا أردنا أن نلقي ضوءًا على شخصية نابليون، فما علينا إلا أن نلم بشيء عن أسلوبه في مدرسة برين الحربية خلال إقامته الدائمة في داخلية هذه المدرسة، فكان نابليون يميل إلى العزلة، ويقرأ في صمت قراءة واعية، ويميل إلى تحليل كل ما يقرؤه، ولا يحب أن يزعجه أحد خلال قراءاته، وكان متفوقًا على أقرانه، ناضجًا، مثقفًا عمره العقلي يزيد كثيرًا عن عمره الزمني، متقدمًا لاسيما في الرياضيات والتاريخ والجغرافيا، وهي مواد تستهوي الذهن المتفتق والعين اللماحة، قرأ كثيرًا من كتب التاريخ، والتهم كتب فولتير وجان جاك روسو، فكان دائم البحث والإطلاع، ينزع إلى العزلة، يبدو متكبرًا، حاسمًا في مناقشاته مع زملائه، قليل الكلام، محبًا لذاته، طموحًا بغير حدود.

قال عنه أساتذته بمدرسة برين: «إن هذا الغلام قد نحت من صوان، لكنه ينطوي على بركان ثائر»، أما أترابه من طلبة المدرسة الحربية، فكانوا يرون أنه نصف متوحش فقيرًا رغم انتمائه إلى النبلاء لا يلم بالفرنسية جيدًا.

ومن الطريف أن أخاه الأكبر يوسف أراد أن يستبدل الكهنوت بالعسكرية، ومعنى ذلك أن يأخذ نابليون منحة الكهنوت، بينما يوسف المنحة العسكرية، فرد عليه نابليون، ولم يكن قد أكمل الخمسة عشر عامًا:

«إنك لن تفلح في الحربية لضعفك في الرياضيات، ولا طاقة لك بالمدفعية ، لأنك لن تتمكن من أن تتحمل أعباءها، وتم تعيين نابليون في وظيفة الملازم ثان وعمره ستة عشر عامًا ، وعندما تخرج نابليون في المدرسة الحربية في باريس انضم إلى فرقته في فالنس مرتديًا سترته العسكرية الجديدة ، وقد تبرم بحياة المعسكر، فكان لزاما عليه أن يرتاد المجتمع ، وأن يدرس فن الرقص للتسلية والترويح عن النفس أسوة بزملائه، ولكن شعوره بأن مستواه المادي أقل من زملائه كان دافعًا له للعدول عن هذه الأفكار، فكان يلجأ إلى طبيعته التي جُبل عليها وهي الاطلاع على الكتب والمراجع ، فانكب على دراسة المراجع المختلفة في المدفعية وتاريخها وأساليب الحصار ، كما اطلع على جمهورية أفلاطون ودستور الفرس ودستور إسبرطة ، واستهوته دراسة التاريخ ، فقرأ عن تاريخ إنجلترا وحروبها وتاريخ مصر والهند والصين وسويسرا ، كما التهم بعض المراجع في علم الجغرافيا ، وبصفة خاصة تلك التي تبحث في الظواهر الجوية ، وكان يخلص هذه الكتب في كراسات بلغت صفحاتها أربعمائة صفحة.



نابليون ومفكرته الشخصية :

وكان نابليون يهدف إلى تخليص جزيرة كورسيكا من الاستعمار الفرنسي ووضع عصارة فكره في مفكرته اليومية ، التي لو وقعت في يد أحد رؤسائه الفرنسيين لقضى عليه ولو بإشارة سريعة ذكرها نابليون في مفكرته كان من الممكن أن تكشف عليه الأفكار التي تجول في نفسيته ، ومن خلالها يسهل تحليل شخصيته ، فقد ذكر في هذه المفكرة أن هناك اثنى عشر دولة ملكية في قارة أوربا يعتلي عرشها اثنا عشر ملكًا يستحق معظمهم الخلع من كرسي العرش.

ويلعب القدر دوره في حياة نابليون عندما حل شعر يونيو سنة ١٧٨٩م، فإذا بنابليون يرسل خطابًا إلى الجنرال باولي ، يبدو من أسلوبه شدة ثقته بنفسه، حيث اشتملت سطوره أنه سوف يغير وجه التاريخ ، ورد عليه باولي: أنه لا ينبغي للشبان أن يخططوا حوادث التاريخ.





نابليون والثورة الفرنسية

شاء القدر بعد شهر واحد من هذا الخطاب أن يقتحم الشبان سجن الباستيل في باريس، وتبدأ أحداث الثورة الفرنسية التي كان شعارها الحرية والإخاء والمساواة، فتوجه نابليون مسرعًا إلى جزيرة كورسيكا – حاملًا شارة الثورة ، ومعتنقًا مبادئها – ولم يكن نابليون الذي لم يتعد عمره العشرين ربيعًا يرى في نفسه إلا بطلًا لينقذ الجزيرة من الاستعمار الفرنسي الذي جثم على صدر كورسيكا قبل أن يولد نابليون بعام واحد، وسار نابليون بخطا سريعة حتى بلغ ميدانها الرئيسي ، ولكن استرعى انتباهه أن جنود لويس السادس شر ملك فرنسا يسرقون الثوار بعد تجريدهم من أسلحتهم، فأرسل شكوى إلى الجمعية الوطنية في باريس يؤكد فيها مبادئ الثورة ، ويطالب بتسليح أبناء الجزيرة ، ووصل نابليون رد الجمعية بعد عدة أسابيع ومنه يتضح أن الجمعية ترى أن كورسيكا إن هي إلا إقليم فرنسي له جميع حقوق سائر الأقاليم الفرنسية ، وأن ميرابو قد أصدر أوامره بالإفراج عن باولي ومن معه من المجاهدين، وتقابل نابليون مع باولي القائد المسن ، وعرض عليه تخليص كورسيكا من الاستعمار الفرنسي ، فرد عليه باولي بنظرة تنطوي على الإعجاب المشوب بالذعر لاسيما عندما قال له نابليون: «إن العظماء الحقيقيين كالشهب تلمع وتحترق لتضيء الأرض».

وتم إجراء الانتخابات في كورسيكا أسفرت عن اختيار نابليون قائدًا للجزيرة، ولم يكن نابليون يريد أن تقيله فرنسا من منصبه ، فكتب إلى فالنس: «إن مركز الشرف للكورسيكي الصميم في هذه الأوقات العصيبة هو ما تولاه في وطنه من قيادة الجزيرة، ولذلك يستبقيني أهلي ، ونظرًا لأنني

لا أريد التقصير في واجبي ، ففي نيتي أن أقدم استقالتي»، ولكن حقيقة الأمر أن نابليون لم يقدم استقالته ، وقد وصف فرنسا في خطابه بقوله: «أمتكم» فشطبت فرنسا اسمه من قائمة الجيش ، وبهذا أصبح نابليون مغامرًا مما دفعه إلى إشعال نار الحرب الأهلية بين أهالي كورسيكا وبين الحرس الفرنسي بها يوم عيد الفصح ، ولكن لم يقدر لنابليون أن ينجح في الاستيلاء على الحصن ، واتهمه الفرنسيون بالخيانة العظمى ، فأسرع باولي إلى إعلان ولائه لفرنسا وعزل نابليون ابن صديقه بونابرت ، ولكن انضم باولي إلى صفوف الراديكاليين ، ومنح نابليون ترقية إلى رتبة اليوزباشي، فصدر الأمر من باريس بالقبض على باولي ، وحاول نابليون القضاء على باولي ففشل، وأصدر مجلس الشعب قرارًا بإبعاد أسرة بونابرت عن الجزيرة كلها ، وطرد أهل الجزيرة بونابرت لميوله الفرنسية ، فاتجه نابليون إلى فرنسا، وكان عمره ثلاث وعشرون عامًا.

هذا ويبتسم الحظ ليوسف الأنيق شقيق نابليون ، فيتزوج بوريثة متجر كبير لتجارة الحرير في مرسليا ، ويفكر نابليون في أن يتزوج يزريه أختها، أما لوسيان شقيقه فقد وصف نابليون بالطموح الذي ينزع إلى الطغيان، ويقول عنه: «إنه لو أصبح ملكًا لتحول إلى طاغية»، وكان أغنياء طولون ومرسليا يخشون أن يرسل روبسبيير قائد الثورة الفرنسية بهم إلى المقصلة، فيفصل رءوسهم عن أجسادهم ، ولذلك كانوا يستخدمون أعداء فرنسا من الإنجليز، ويعطونهم بعض السفن الحربية للدفاع عنهم ، ولما وجد نابليون أن القوات الإنجليزية تحيط بميناء طولون جمع حوالي مائة مدفع ، ثم تقدم بشكوى ضد رئيسه ، رغم أنه «يوزباش» في الرابعة والعشرين منفذًا ألوب رئيسه ، مطالبًا بتوحيد القيادة وضرب ميناء طولون ضربات شديدة التركيز حتى يحدث ثغرة ، فيتخل توازن العدو، فوافقت الهيئة المركزية على أسلوب نابليون في القتال ، وقاد الهجوم بنفسه ، فمزقت طلقات الإنجليز جواد

نابليون، وأصيب نابليون في بطن ساقه ، وكان هذا أول وآخر جرح يصيبه خلال حياته الحربية بعد ذلك، ولعل نابليون قد أصاب كبد الحقيقة حين خطط لهذه المعركة؛ لأن الثغرة حدثت فعلًا كما توقع، فلم يكن للإنجليز ما يحمي ظهورهم فانسحبوا فوق كتل من الجثث، ليرتفع نجم نابليون في سماء فرنسا ، فأقامت باريس احتفالا بتحرير طولون ، ومن الطريف أن رئيس نابليون أرسل تقريرًا إلى الجمعية العامة يشيد بأسلوب نابليون ونجاحه في خطته ، وكان لنجاح نابليون في معركته مع الإنجليز في طولون أن قامت الجمعية بتكليفه بتحصين شاطئ فرنسا بأكمله من طولون إلى نيس ، ولما وصل نابليون إلى نيس تم القبض عليه حيث اتهمه الفرنسيون بالتواطؤ مع روبسير الذي قتل بنفس المقصلة التي قتل بها عشرات الآلاف من الأبرياء، وهيأ له بعضهم سبيل الهرب لكنه رفض ؛ لأن هروبه يسجل عليه تواطئه مع روبسيير للفتك بجيش الجنوب ، ولكن الجمعية أطلقت سراحه بعد أسبوع من اعتقاله.

نابليون القائد العاطل :

وكان نابليون قائدًا متعطلًا إلى أن تغيرت الأمور في فرنسا ، وتولي وزير جديد وزارة الحربية ، وكان دائم البحث عن قائد يحارب في الميدان الإيطالي ليهدد النمسا ، ويرغم إمبراطور النمسا على عقد صلح كما تشاء فرنسا ، ورشح له بعض أعوانه نابليون كرجل الساعة القدير ، ويستقبل الوزير نابليون ، ويطلب منه الخطة في محاربة العدو ، وبعد نصف ساعة فقط كان قد قدم الخطوط العريضة والتفاصيل الدقيقة للمعركة المتوقعة أمام وزير الحربية الذي كان تعليقه إنها ممتازة وتدل على مهارة رائعة في التفكير ، ولكن مشكلتها في صعوبة التنفيذ ، وقال الوزير عن نابليون : «إن هذا الرأس يجب أن يكون في قسم العمليات»، وكان نابليون قد بلغ السادسة

والعشرين من عمره ، وطلب نابليون نقله إلى تركيا لتنفيذ خطته الحربية ضد روسيا والنمسا، ولكن منافسيه لجؤوا مرة أخرى إلى شطب اسمه من قوائم الجيش ، ولكن عندما قام نزاع بين الحكومة والمعتدلين الذين يسندهم الملكيون زادت قوات الحرس الأهلي إلى أربعة أمثال قوات الحكومة ، وأصبحت الجمعية بلا حماة لها ، فهرع نابليون إليها ، وقال كلمة قصيرة لأعضاء الجمعية التي أصدرت قرارها لنابليون بالدفاع عن الحكومة ، فاشترط نابليون لكي يدافع عن الجمعية ألا يشاركه أحد في السلطة إلا بازاس فقط ؛ لأنه طوع يديه ، وكان صدور القرار لنابليون بالحماية بعد أسبوعين فقط من طرده من الجيش.



أول جرائم نابليون:

وسرعان ما نجح نابليون في تحويل الجمعية إلى حصن ، وعندما جاء الشعب ليهاجم الجمعية أمر نابليون بإطلاق نيران المدفعية عليهم ، فقتل ثلاثة وجرح ستين من الشعب ، كما تم تجريد بقية المهاجمين من أسلحتهم ، وعاد الهدوء والسكون إلى الشوارع بعد أن اكتست أرضية الشارع المحيطة بالجمعية باللون الأرجواني.

ثم ما لبث نابليون بعد هذا النصر أن وقف فوق منبر الجمعية ومعه ضباطه وسط عاصفة من التصفيق ، وتم تعيين نابليون قائدًا عامًا لجيش فرنسا كله ، وزاد أتباعه من العسكريين ، ولكن الجمهور كان ينظر إلى نابليون نظرة الحقد والكراهية.



الجانب الشخصي لأسرة نابليون:

وإذا أردنا أن نلقي بعض الضوء على أسرة نابليون ، ففي كلمات خاطفة يمكن أن نقول: إن أخويه الصغيرين قد حصلا على مراكز ممتازة ، وأن أمه قد بدأت تعيش في مستوى اقتصادي مرتفع ، وأن نابليون ألح على أخيه يوسف ليتزوج بزيريه شقيقة زوجته التي رفضته، مما دفع نابليون إلى التقدم لفتاة كورسكية تكبره في السن، ولم يكن ردها بأحسن من رد يزيريه، فاضطر إلى التقدم لحسناء فرنسية تكبره سنًا فرفضته هي الأخرى.

وفي هذه اللحظات شاعت الظروف عندما أمر نابليون بمصادرة جميع الأسلحة لدى الشعب الفرنسي أن جاءه غلام في الثانية عشرة من عمره يطلب من نابليون أن يرد إليه سيف أبيه الذي قتل ، فيعطيه نابليون السيف، فتأتي جوزفين أم هذا الصبي - والتي كان زوجها ملكيًا وأعدم - وأودعت هي السجن حتى قتل روبسبير فأخروجها من السجن لتشكر نابليون على منحه السيف لابنها ، وكان جمالها آخاذًا حرك مكامن الشعور في شخص نابليون، فأرسل لها الخطابات الملتهبة ، وعرض عليها الزواج ، والجدير بالذكر أن نابليون لم يطلعها على خططه السرية ، وتزوجها نابليون ، وكانت تكبره في السن حيث كان عمرها ثلاثة وثلاثين عامًا ، فاضطر نابليون أن يغالط في سنه حتى يكون أكبر منها سنًا، فبدأ زواجهما بتاريخين مزورين ، حيث ادعت أنها في الثامنة والعشرين وكان لديها طفلان من زوجها الأول.

نابليون يحارب إيطاليا:

وتم تكليف نابليون بمحاربة إيطاليا ورغم أنه لم يكن لدى نابليون في ذلك الوقت سوى أربعة وعشرين مدفعًا وأربعة آلاف حصان مريض ومؤن تكفي ثلاثين ألفا من الجنود لمدة شهر بحيث لا يعطي الجندي سوى نصف تعيينه الذي اعتاده أقول: رغم كل هذا فقد وعد جنوده بالنصر،

فاجتاز نابليون الممرات الضيقة وهاجم بكل قوته الجيش الذي يقوده ملك سردينيا ، واضطر إلى الموافقة على الهدنة مع نابليون التي تنازل بمقتضاها لنابليون عن كل ما ينبت في أرضه، وعندما واجه عدوه الآخر القائد النمسوي بوليبه وعمره ٧٢ سنة المتحالف مع ملك سردينيا خشى الأخير من نابليون ، فاستسلم بعد ساعة، وهكذا حقق نابليون لقواته وعده لهم بالانتصار على إيطاليا ، فازدادوا حبا له وتقديرًا ، وكانت الثورة الفرنسية قد رفعت اسم نابليون عاليًا في سماء فرنسا ، وأعطى نابليون جنوده الشجعان الذين اشتركوا في ثلاثة حروب أو معارك رتبة الأميرالاي.

ورغم كل ذلك فإن حكومة الإدارة «المديرين الخمسة» الذين يتناوبون الرئاسة أرسلت إلى نابليون – الذي تخشاه لشجاعته المتهورة وطموحه الذي ليس له حدود – تعلمه أن أمر قيادة الجيش لن يستمر لنابليون وحده، بل سيشاركه فيه كليرمان ، فرد نابليون على حكومة فرنسا في أن كليرمان أكثر منه خبرة ومن أعظم القواد الفرنسيين في أوربا، ولكن رفض نابليون الاشتراك معه في قيادة الجيش، مما دفع حكومة المديرين إلى التراجع في هذا القرار خوفًا من أن يبطش بها نابليون ، ومن الطريف أن نذكر أن مقر قيادة نابليون يتغير يوميًا خلال المعارك.

وبعد أن فتح نابليون ميلانو جلس في قصر كبير الأساقفة ليستريح ، وقال: ستكون ميلانو عاصمة الجمهورية التي يبلغ تعدادها ٥ ملايين نسمة، وسأنتخب من بينكم خمسين رجلًا يحكمونها باسم فرنسا، فإذا عادت النمسا واستولت على لمبارديا فسوف أكون معكم، فإذا هلكت بلادكم هلكت معها وأنتم الآن أتباع ، ولكنهم أحرارًا.. إني سيدكم لكن أحميكم وكل ما أريده منكم ٥٠٠ مدفع وصداقة فرنسا!

وانتصر نابليون على إيطاليا بعد معارك فاصلة بينه وبين ودرمزر الذي لم تبق معه سوى مانتوا فقط.

وبقيام أزمات جديدة في شمال فرنسا يتوجه إليها نابليون ليحارب ولكنه يهزم في بادئ الأمر، فيطلب مددًا من باريس، ويلجأ نابليون إلى أسلوب الخداع، فيرسل جانبًا من حرسه في قوس كبير حول العدو ومعه الأبواق والطبول، فعندما تنطلق هذه الأبواق وتلك الطبول خلف العدو وسط المعركة يدب الذعر في قلوبهم فيفرون من المعركة وينتصر نابليون، وعاد نابليون إلى ميلانو وبحث عن زوجته جوزفين فلم يجدها، فأوشك أن يفقد صوابه لأنه شديد الحب لها بينما هي تخشاه ولا تحبه.

أما في باريس عاصمة فرنسا فإن صور نابليون أصبحت في كل مكان، كما أن الشعراء الفرنسيين أشادوا بانتصاراته، وقارنوا بينه وبين قدامى الفاتحين والغزاة في العالم والأغاني والمسرحيات والإعلانات كلها أصبحت تذكر نابليون منقذ فرنسا، وقد عرف نابليون كل هذا عندما وصل باريس، كما عرفته حكومة الإدارة التي كانت تخشى شخص نابليون وزيادة حب الشعب له وغاظهم أن نابليون لا يسمع لآرائهم أو توجيهاتهم، بل كانوا متخوفين على حياتهم منه، ولذلك أرسلت حكومة المديرين لنابليون كلارك الجنرال الأنيق المتكبر، وفكر الأخير في أسلوب للتخلص من نابليون، وفوجئ أن الجميع يستقبلون نابليون كملك وليس كقائد جيش، حتى أن كلارك اضطر أن يوشي بخطط المديرين وانحنى أمام نابليون وانضم إليه ليكون في خدمته.

خطة نابليون لمقاومة الحكومة:

عرف نابليون أن حكومة المديرين تريد عقد صلح مع الألمان، وليست لديها الرغبة في الحفاظ على إيطاليا، فبدأ نابليون يضع خطة لمقاومة الحكومة متبعًا أسلوبًا ماكرًا مع الحكومة، حيث طلب منها إرسال المدد لأن جنوده وضباطه أصبحوا في حالة إعياء كامل، كما أخبرها أن صحته لم تعد

تساعده على امتطاء جواده، فلم يبق له سوى شجاعته ولذلك طلب منها البحث عمن يخلفه إذا كانوا يريدون الاحتفاظ بإيطاليا، وفي نفس الوقت أرسل لحكومته مائة من أجمل وأقوى الجياد لتحل أمام مركباتهم محل خيولها الرخيصة كما أرسل لها مبلغًا كبيرًا من الأموال التي جمعها من المهادنة مع الملوك والأمراء ، ولا شك أن نابليون كان في صحة ممتازة ، ولكن طبيعة نابليون أنه كلما زاد تعلق الشعب به تقدم بطلب الاستقالة ، وويل للحكومة لو وافقت عليها! فهو كلما ثبت أقدام فرنسا في إيطالي ارتفع رصيده من حب الفرنسيين له ، ونابليون يجمع الآن دول إيطاليا الست الصغيرة ويملي عليها دستوره ويعزل من يشاء من الموظفين ويعين من يشاء ، وفي نفس الوقت يقوم بعمل منشورات رائعة بارعة عن حرية هذه الشعوب ، وجلب من إيطاليا إلى متحف اللوفر في باريس أعدادًا كبيرة من القطع الفنية الثمينة ما لم يستطيع ملك سابق في أوج انتصاراته ، وعندما وصل إلى سمعه أن هناك بعض المديرين يختلسون تعيينات الجيش أصدر أمره بفحص كل من يتعلق بمؤونة الجيش وأعطى هذه اللجنة سلطة إعدام أي مدير مرتشٍ.

نابليون يحارب الدعارة:

وعندما علم بأن الدعارة انتشرت في بعض المعسكرات أصدر أمره بأنه بعد مرور ٢٤ ساعة على صدور القرار في حالة العثور على هذه النسوة الساقطات تدهن أجسادهن بالسواد وتعرض علانية في الميادين لمدة ساعتين ، ورفض مبدأ الجلد والتعذيب ، وقال: إنها وسيلة لا إنسانية.

طلب المديرون من نابليون مهاجمة روما ، ولكن نابليون يعلم جيدًا أن البابا هو الأمير الوحيد الذي لا يمكن القضاء على سلطته بالمدافع ؛ لأنه يمثل نسبة كبيرة من سكان العالم، فتوجه نابليون لمقابلة البابا الذي وعده بأن يدفع لفرنسا بضعة ملايين ومائة صورة ومجموعة من الأواني والتماثيل

تختارها لجنة ، وفي حالة رفض البابا تنفيذ ما اتفق عليه فإن نابليون سوف يزحف تجاه روما وليس عليها ، فلو هرب البابا لأخذ نابليون كل كنوزه.

ومما يؤكد أن نابليون رجل دولة أيضا أنه أرسل إلى القائد المهزوم شقيق الإمبراطور الألماني الذي كان يستعد لمحاربة فرنسا رسالة يقول له فيها: ألا تريد أن تحمل لقب البار بالإنسانية المنقذ لألمانيا، فإنني أرى أنه بإمكانك أن تنقذ بلادك بسلاحك، ولكن ألمانيا عندئذ ستصبح خرابًا، وتقع هذه الرسالة من قلب الراندوق في الصميم وهو رجل يميل للسلام ويكره الحروب، وتأتي رسل إمبراطور النمسا للتفاوض ويطلب نابليون إعطائه بلجيكا ولمبارديا على أن يعوض أمرائها بأراض من ألمانيا فتقبل النمسا هذا العرض.

وصمم نابليون على الانتظار بإيطاليا طوال أشهر الربيع والصيف حتى يطمئن إلى استقرار حكمه ، ثم اتجه بعد ذلك إلى باريس ودعا أسرته جميعًا فحضرت أمه وجوزفين وبينهما عداء مستحكم، فأمه تكرهها لأنها لا تمانع في ملاحقة أي رجل تقابله ، وتشعر الأم الكورسكية التي أنجبت ثلاثة عشر طفلًا أن عقم جوزفين لا يليق بابنها وعادت الأم إلى كورسيكا.

وعندما عقد الصلح مع روما التي تنازلت بمقتضاه عن بولونيا وفيرارا وروماني، ويحكي ياور نابليون عنه أنه عندما حل بقصر ميلانو استمتع لأول مرة بحياته الزوجية وببهجة في النفس، ويستكمل ياوره الحديث فيقول: «لقد كان في المركبة يبيح لنفسه من المحرمات الزوجية ما يربكنا ، ولكن تصرفه كان ينم عن ميل صادق فاغتفرنا له كل شيء.



الداهية تاليران ونابليون الإنسان:

بدأ تاليران يظهر على مسرح السياسة ويتميز هذا الرجل بالدهاء والقدرة على المفاوضة وإدارة دفة الحديث في أسلوب لبق وهو هادئ

لا تستبد به شهوى سوى شهوة الطمع، له رأس ماكر يتنسم رائحة الجو ويستطلع اتجاه الريح ، فهو رجل كل ساعة ، لا مبدأ له ، يسير في ركاب من بيدهم الأمر ، فمهما كانت مبادؤهم فهو سريع التلون إلى أن يوفق في الإطاحة بمن بيده مقاليد الأمور.

أما عن نابليون غريمه فهو يفكر في الدفاع عن فرنسا وفي وضع دستور جديد يعطي شعب فرنسا مبادئ الثورة الفرنسية ، ويعلق تاليران على هذا بأن نابليون سئم المعارك ويريد من وضع الدستور أن يكون دكتاتورًا.

ولجأ نابليون إلى عقد صلح مع الألمان وهو صلح كامبوفورميو سنة ١٧٩٧م بدعوى نشر الصلح والسلام في ربوع قارة أوربا بعد أن هددهم نابليون بأن في إمكانه لو أراد فتح أوربا كلها خلال عامين فقط ، فكان لهذا الأسلوب الإرهابي النابليوني أثره في سرعة توقيع المعاهدة بعد ست سنوات من الحرب بين ألمانيا وفرنسا .

ومن الطريف حقًا أنه خلال مفاوضات نابليون مع وزير خارجية ألمانيا في النمسا استرعى انتباهه وجود عرض فاخر تعلوه مظلة لإمبراطور ألمانيا في فيينا فقال نابليون موجهًا كلامه للألمان: «أخرجوا هذا الكرسي قبل أن تبدأ المفاوضات فأني ما رأيت مقعدًا معّلى إلا حدثتني نفسي باعتلائه! فأخرجوه!

عاد نابليون بعد ذلك إلى فرنسا واستقبلته باريس استقبالًا رائعًا ، وظهر نابليون وسط الألوف بلبس الميدان لأنه يبدو فيه كثير التواضع، وقام تاليران فألقى خطبة ختمها بقوله: «ستكون فرنسا بأسرها حرة ما عدا خلاه، فقد لا يكون حرًّا أبدًا ، وهذا مصيره» ، ولكن لم يدرك أحد معناها إلا نابليون نفسه ، واعتلى نابليون المنبر وقال: إن شعب فرنسا حارب ملوكه ليفوز بالحرية واليوم يشرف عصر الدساتير ولي الشرف أن أحمل إليكم معاهدة كامبرفروميو، ثم يدوي تصفيق كالرعد لا للخطبة إنما لشخص نابليون.

تفكير نابليون وفكرة فتح مصر وأسبابها :

قال نابليون: منذ هذا التاريخ الذي تم فيه عقد صلح كامبوفورميو إن أوربا أصبحت تنعم بالسلام وإن من الصعب على فرنسا أن تحارب إنجلترا في عقر دارها ؛ لأن بريطانيا جزيرة محصنة في عرض البحر، ففكر في التوجه إلى الشرق ليهزم إنجلترا في الطريق المؤدي على درة التاج البريطاني وهي الهند ، ومن الطريف أن نابليون أصدر لنفسه أمر تعيينه قائدًا لجيش الشرق، وكلف نفسه بالاستيلاء على جزيرة مالطة ومصر ، وإقصاء إنجلترا عن البحر الأحمر وشق قناة السويس، ليضمن لفرنسا امتلاك هذا البحر، وسرعان ما تحولت هذه الرغبة التي غذاها خياله إلى أن يضعها موضع التنفيذ وهو بهذا العمل لم يكن يدرك أنه وضع نفسه في نزاع مع إنجلترا لا يدري مداه ، فبدأ ينسج بنفسه خيوط مصيره.

وأرسل إلى أخيه رسالة يحيطه علمًا بأنه سيتوجه إلى الشرق ، وسيفوز على إنجلترا، فإذا احتاجت إليه فرنسا فسوف يعود لينقذها فورًا ، وسأله أحد المديرين عن مدة غيبته في الشرق، فرد عليه بأنها ستة شهور وربما امتدت إلى ست سنوات.

حملته على مصر :

ولا شك أن النزاع بين إنجلترا وفرنسا كان هو المحرك الأول للحملة الفرنسية على مصر، وخرج نابليون في حملة أطلق عليها جيش الشرق قوامه ٣٦.٨٢٦ مقاتلًا ، وكانت السفن الشراعية التي تحملهم عددها ٣٠٠ سفينة، بالإضافة إلى ٥٥ سفينة حربية كبيرة ، منها ثلاثة عشر بارجة ، وأقلعت هذه العمارة جميعها من ميناء طولون يوم ١٠ من مايو سنة ١٧٩٨م، وصحب هذه الحملة بعض قواد نابليون الذين أثبتوا براعتهم الحربية في معارك إيطاليا والراين، وفي مقدمتهم بريثيه berthier وكافريللي

Caffarelli وكليبر Kleber ورينيه Reynier وديزيه Dexais وموراً Murat ، وجهز نابليون الحملة بمطبعة عربية وأخرى يونانية، واصطحب معه طائفة من علماء فرنسا ونوابها في الرياضة والهندسة والطب والجغرافيا والأدب والكيمياء والاقتصاد والآثار والمعارف وطبقات الأرض والنبات والمعمار وهندسة الري والقناطر والجسور والميكانيكا وطائفة من رجال الفنون والمصورين والرسامين والموسيقيين والنقاشين والممثلين بلغوا ١٤٦ عضوًا.

ورست هذه السفن بجزيرة مالطة يوم ٩ من يونيه، وكان يحكمها فرسان القديس يوحنا، واحتلها نابليون بعد مقاومة محدودة ، واحتل حصونها ومعاملها ، وترك بها قوة من ٣ آلاف جندي بقيادة الجنرال فابوا Vaubais لتوطيد سلطة فرنسا في الجزيرة والدفاع عنها إذا هاجمها الإنجليز وجند ألفين من مالطا أخذهم معها ، بدل منهم ، وعند خروج الحملة من طولون كان نلسون قائد الأسطول البريطاني يقف ومعه ثلاثة من أمراء البحر الإنجليز على ظهور سفنهم يجهدون أنظارهم بالمناظير، وشاءت إرادة القدر أن تلعب دورًا لتنقذ السفن الفرنسية إذ هبت عاصفة عاتية فرقت السفن الإنجليزية وأخرت سير الحملة الفرنسية يومًا كاملًا ، فسبق بذلك الفرنسيين الإنجليز إلى مالطا واستولوا عليها، وحينما وصلها الإنجليز كان الفرنسيون قد غادروها ، وتأكد الإنجليز من ذلك؛ لأن القوات الفرنسية كانت قد قامت بتزييت وتشحيم مدافعها ، فتركت آثارها الحربية على الجزيرة، فتوقع نلسون أن الحملة الفرنسية سيكون اتجاهها إلى الإسكندرية ، فشد الرحال إليها، فلم يجد أحدًا، وانتظر ثلاثة أيام في مياه الإسكندرية دون جدوى، فلما رفض السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية مد الأسطول البريطاني بالماء والغذاء أسرع نلسون إلى سوريا ، ثم صقلية بحثا عن الأسطول الفرنسي، ويقضي بونابرت في رحلته البحرية أربعة أسابيع ويلزم فراشه خلالها لإصابته بالدوار، وكان أسطول نابليون يشتمل على ألفي مدفع ومعه علماء في الفلك والهندسة والمعادن والكيمياء والآثار وبناء

الجسور ومهندسين طرق واقتصاديين ورسامين وشعراء وبلغ عدد علماء الحملة الذين اصطحبهم نابليون مائة وستة وأربعين عالمًا من المدنيين يحملون معهم أجهزتهم ومراجعهم في مئات الصناديق ليشيد فرنسا مستعمرة ويبني لنفسه في أفريقيا مجدًا، هذا بالإضافة إلى مطبعة عربية ومكتبة تحملها سفينة القيادة.

عندما وصل نابليون الإسكندرية يوم ٢ من يوليو سنة ١٧٩٨ قاومه السيد محمد كريم حاكم الإسكندرية وبعد سيطرته على الإسكندرية حدثت مقاومات للحملة في البحيرة، ثم واصل نابليون سيره إلى القاهرة بعد هزيمة المماليك في موقعة الأهرام «إمبابة» وفرار مراد بك إلى أسوان وإبراهيم بك الذي حاول الدفاع عن الشرقية إلى سوريا، أقول بعد هذا: أخذ نابليون يسير بجواده فوق رمال الصحراء متوجهًا إلى أبي الهول وأهرامات الجيزة، ويفكر نابليون في هذه اللحظة فيقول: إن الإسكندر وقيصر وقف كلاهما في هذا المكان يفصلهما عن أبي الهول ألفان من السنوات وأربعون قرنا عندما وصل نابليون، ويقول: إن مدافع نابليون حصدت ثمانية آلاف مملوك هم خيرة فرسان العالم! وفي القاهرة عرف نابليون كيف يستميل الشيوخ والأعيان! فيزعم لهم أنه محب للأتراك وأنه يقاتل أعداءهم المماليك.

ويعود نابليون من رحلة الصحراء فيقابل وجوها جامدة مضطربة فقد هاجم نلسون قطع الأسطول الفرنسي الـ٤٠٠ وأغرق واستولى عليها عدا أربعة قوارب صغيرة فرت من المعركة، وكان من بين هذه السفن ١٣ بارجة حربية، وعلق نابليون: «إن هذه السحابة قد حجبت نجمي»، ولكنه يقول: «عن حظه هو الذي أخر وصول نلسون حتى ثبت قدمه في مصر».

حاول نابليون الاتصال بشاه الغجم والسلطان ميسور ليشق لنفسه الطريق إلى الهند، ولكنه لم يوفق.

ماذا فعل نابليون في مصر؟

أخذ نابليون يدرس بعض الأفكار الجديدة ولعل في مقدمتها ترشيح مياه النيل وإنشاء طواحين الهواء ، والبحث عن موارد أولية لصناعة البارود ودراسة لأسماك النيل ومعادن البحر الأحمر ونبات الدلتا ومحتويات رمال الصحراء ويدرس استغلال بحيرة النطرون وطمي النيل وأسباب الإصابة بالطاعون والرمد ، والكشف عن معادن الوجه القبلي ويكتشف عيون موسى، وذات يوم فوجئ بأحد ضباطه من رشيد بلوحة من الصوان «حجر رشيد» عليها تفسير باليونانية للنقش المصير فيكتشف العالم شمبليون بعد ذلك مفتاح اللغة الهيروغليفية، كما يدرس نابليون فكرة توصيل البحرين المتوسط والأحمر التي نفذها فريناندليس بعد ذلك بنصف قرن ولعبت دورًا خطيرًا ولا زالت إلى الآن تلعب دورًا رئيسيًا في التجارة العالمية بين الشرق والغرب.



نابليون يقتل ثوار مصر:

وعندما اندلعت ثورة القاهرة الأولى في ٢١ من أكتوبر سنة ١٧٩٨م من الأزهر والدراسة ، وضع نابليون مدافعه على تلال المقطم وصوبها جهة الأزهر، واستطاع أن يقمع هذه الثورة، وعلق رؤوس بعض الثوار على أعمدة ليكونوا عبرة لغيرهم.

وعلم بعد ذلك أن السلطان قد أعلن الحرب على فرنسا ، وأن الشواطئ الشمالية تحاصرها القوات البريطانية ، وفكر نابليون في وضع خطة ليقاوم بها القوات العثمانية التي ستحضر إلى مصر من قبرص ومن الشرق لتطبق على الحملة الفرنسية في مصر ، وفعلا قال نابليون: «إن الهجوم هو خير وسائل الدفاع» فهو سيكون في شهر يونيه سنة ١٧٩٩م في دمشق ويدفع طلائعه حتى جبال طوروس ويزحف نحو الشرق بستة وعشرين ألف

فرنسي وستة آلاف من المماليك وثمانية عشر ألف درزي ويستولى على مستودعات الأتراك وموانيهم ويسلح المسيحيين من السوريين، وبعد أن استولى على يافا أسر ثلاثة آلاف جندي تركي ، ولكن نابليون وجد أن هؤلاء الأسرى يحتاجون إلى ألف من قواته لحراستهم، وفكر في بادئ الأمر في ترحليهم إلى مصر، ولكن من أين السفن التي تنقلهم وليس لدى العدو أي أسير فرنسي حتى يبادلهم الأسرى، وعقد نابليون مجلسه الحربي الذي قرر إعدامهم لأن الجنود الفرنسيين كانت يتملكهم الحقد كلما رأوا خبزهم يتناقص من أجل إطعام هؤلاء الأسرى، واستمر نابليون يفكر لمدة ثلاثة أيام، وأخيرًا قرر دفع الأسرى إلى البحر وقتلهم ووافق النقاد العسكريون على هذا الأسلوب لاسيما الألمان.



نابليون القائد الذي يحلم :

ووصل نابليون بخياله إلى قدرته على الاستيلاء على دمشق وحلب وعزل الولاة الظلمة ثم يدخل القسطنطينية ومعه جماهير هائلة مسلحة ويسقط تركيا ويؤسس إمبراطورية جديدة عظيمة، وربما يفكر في العودة إلى الوطن عن طريق أدرنه أو فيينا ، ويتوجه نابليون إلى عكا ولكنه يفاجأ بأن الحصن رغم صغر حجمه إنما شديد التحصين بأسلحة حديثة يدافع عنه ضباط إنجليز ويهاجم نابليون الحصن بمدفعيته مرات متعددة ولكن أحمد باشا الجزار يدافع ببسالة عن عكا والسفن الإنجليزية في البحر تمده بالذخيرة والأسلحة.

وفي هذه اللحظة جاءه نبأ من فرنسا بعد ثمانية شهور من ابتعاده عنها أن فرنسا مشتبكة في حرب مع نابلي وسردينيا وأن مورو وأوجرو منافساه يتوليان قيادة جيش فرنسا وطبول الحرب تدق في أوربا وليس هناك من يستطيع أن ينقذ فرنسا سوى ابن الثورة ويتقهقر بمؤخرة الجيش ويأمر

نابليون بتسميم خمسين من جنوده بالأفيون ليخلصهم من مرض الطاعون حيث قطع الأطباء الأمل في شفائهم ولكن رفض الأطباء تنفيذ فكرته ، ويصل نابليون إلى القاهرة في موكب يرفع أعلام النصر ودقات الطبول محاولًا إفهام الشعب المصري أنه عاد منتصرًا ويتقدم الأتراك عبر خليج أبي قير بعد مرور عام على موقعة أبي قير البحرية وينتصر نابليون بجيش يمثل نصف عدد جيش الأتراك وعانقه مورات أحد قواده في نهاية المعركة قائلًا: إنك عظيم كالدنيا لكن الدنيا أصغر من أن تسمعك.

وكان نابليون قد اتخذ حارسا له من المماليك طويل القامة جميل الصورة أزرق العينين يدعى رستم من أهالي الكرج ، وأعطاه سيفا وأمره أن ينام عند عتبة بابه ، وفعلًا ظل يلازمه خمسة عشر عامًا.

وبعد أن تم له النصر في أبي قير البرية اتصل بنلسون قائد الأسطول البريطاني المرابط في عرض البحر بحجة مبادلة الأسرى بينما كان هدفه الحقيقي حصول ياوره على إحدى الصحف، وفعلنا عندما قرأها تأكد أن فرنسا أوشكت أن تفقد إيطاليا، وقفز نابليون من سريره ، واجتمع بمارمو موضع ثقته ، وقال له: «إنني سوف أسافر إلى فرنسا، وسوف آخذك معي، وأترك القيادة لكليبر ، ولقد جئت لأؤسس مستعمرة وفعلًا هزمت الأتراك، والآن بلغت الثلاثين من عمري.

وبدأت تمخر سفينتان صغيرتان مطفئتي الأنوار البحر أمام الإنجليز وظل يلعب الورق ويغش فيه كعادته ، وفي اليوم التالي يرد النقود لمن كان يلعب معه، وظلت السفينتان في البحر بضعة أسابيع وكان نابليون يخشى وقوعه في يد الإنجليز وصمم على نسف السفينة التي يركبها إذا وجد أن الإنجليز سوف يأسروه ، وبعد ستة أسابيع وصل جزيرة كورسيكا، وتأكد نابليون أنها لازالت تابعة لفرنسا، ونزل إلى البر واستقر في بيت والده، ثم واصل سيره إلى باريس، واحتفل به الناس احتفالا ضخمًا وكذلك صحف

المعارضة والحكومة باعتباره منقذ فرنسا، وعرفت زوجته جوزيفن خبر قدومه في اللحظة التي كانت تعد طعام العشاء على مائدة جوييه رأس المديرين ، فأصيبت وجوييه بالذعر ، وحاولت أن تفاجئ نابليون بالحضور إليه، ولكن أخوته كانوا قد استقبلوه وعرفوا نابليون بفضيحتها وعزم نابليون على طلاقها مهما تقول الناس، وكان الناس في شوق إلى معرفة من بيده السلطة أهو مولان قائد الحملة أم نابليون الذي هجر جيشه ؟

ولم تمر أيام معدودة حتى استطاع نابليون أن يقضي على حكومة المديرين، وتم تعيينه قنصلًا أول لمدة عشر سنوات ، ولكن نابليون قام بإجراء استفتاء للشعب ليكون قنصلا مدى الحياة أيده فيه أربعة ملايين ناخب واعترض عليه بضع عشرات فقط.

وأرسل نابليون إلى إمبراطور ألمانيا يطلب منه وقف الحرب ويدعوه لعقد الصلح لتهيئة السلم للجيل الحالي، فهل كان نابليون من دعاة السلام؟

في الواقع أن نابليون وإن كان قد اعتاد حياة المعسكرات وأحبها إلا أن رجل الدولة الكامن فيه هو الأقوى ، فهو من يوم أن تدرب على لعبة المفاوضات مع الملوك والأمراء فقد أحب هذه اللعبة الذهنية ، وفي نفس الوقت لن يترك سيفه الذي عرفته أوربا يصدأ وأصبح نابليون بعد انتخابه قنصلا أول مدى الحياة يعقد بمفرده المعاهدات مع الدول الأجنبية ويعين وحده أعضاء الشيوخ.

ويعرف نابليون أن فرنسا بحاجة مستمرة إلى المجد وإلى الراحة وإليه شخصيًا وخلفه أعداؤه وأعداء فرنسا يتربصون به ، ولهذا خط إلى الإمبراطور ذلك الخطاب الذي لم يكتبه منتصر في ميدان القتال فقال: «إن الدكتاتور العائد إلى وطنه يفتش عن السلام بكل قواه وهو يحيط نفسه لأن وهو ينتزع الأراضي عادة بالزحف السريع والضربات القاسمة ينتزع الآن الصداقة مع أعدائه القدامى ، ففرنسا اليوم في صلح مع النمسا وبروسيا

وبافاريا وروسيا ونابلي وإسبانيا والبرتغال وإنجلترا أخيرا بعد وفات بت Pitt العنيد وتعيين فوكي الدبلوماسي ليدعوه نابليون إلى باريس ، بل قد اعترف تسعة أمراء من أشد المتمسكين بشرعية الحق الملكي اعترفوا بجمهورية فرنسا بعد أن استمروا يحاربونها أكثر من عشر سنوات.

نابليون وإنشاء المدارس الشعبية :

بدأ نابليون ينشئ في فرنسا المدارس الشعبية وفي مدة ثلاث سنوات أصبح بها ٤٥٠٠ مدرسة شعبية و٧٥٠ مدرسة ثانوية و٤٥ ليسيه ، كما اهتم نابليون بالتعليم الفني تحت إشراف العالم مونج Monge ووجه اهتمامه إلى مختلف المهن ليقضي على البطالة المنتشرة في ربوع فرنسا، وفي ليلة عيد الميلاد ركب نابليون القنصل الأول متوجهًا إلى دار الأوبرا ، وفجأة انفجرت قنبلة فقتلت عشرين شخصًا ، ولم يصب القنصل بسوء ولا أي أحد من أفراد أسرته، ولكن رد فعل نابليون كان كبيرًا ، فعطل ٦١ صحيفة وفرض الرقابة الصارمة على كل ما ينشر حتى أن أخاه الذي يصغره بست سنوات وهو لوسيان كان يرفض الرضوخ لنابليون وهو شديد المغامرة، وكان لوسيان وهو وزير الداخلية قد اشترى قصرًا فاخرًا وعمل بالمضاربة في البورصة مما دفع نابليون إلى إقالته وعينه سفيرا لفرنسا ضد إنجلترا ولكن لوسيان عندما توفيت زوجته تزوج من حسناء سمعتها لا تفضل سمعة جوزفين، ورفض فكرة نابليون من زواج سياسي.

وأغدق نابليون على إخوته جميعًا البنين والبنات وعلى أمه التي رفضت العيش معه، وعين نابليون أغلبهم في وظائف كبيرة ، ولكن أحدًا من أخوته لم يقف إلى جانبه ولم يقدر شعوره، وكانت مشكلة نابليون هي من يخلفه ، فزوجته لم تنجب منه رغم أن لها ولدين من غيره ، وهو له ثلاثة أولاد من علاقات غير شرعية ، وكان نابليون يقضي أمسيات مرحة مع الوصيفات.

مؤامرة ضد نابليون:

اكتشف نابليون أن أحد أمراء أسرة البربون يسمي جورج كادووال Cearges Cadaudal (ابن عم الملك لويس السادس عشر) ضالع في مؤامرة ضده، أرسل إليه نابليون ثلثمائة رجل في الزوارق إلى مدينة بادن عبر نهر الراين، نجحوا في اختطافه ، وقام مستشار دولته بدور المدعي في توجيه الأسئلة إليه أعدها القنصل الأول شخصيًا، واتضح له أنه يقبض مرتبًا شهريًا كبيرًا من إنجلترا ، وحكم عليه بالإعدام، ونفذ الحكم عسكريًا في اليوم التالي، وعلق نابليون على ذلك بقوله: «أنا الثورة الفرنسية، وسأعرف كيف أحميها» ، وبعد أسبوع واحد من هذا الحدث طلب بعض أعضاء من مجلس الشيوخ إلى نابليون إنشاء محكمة دولة لتصان حياة رئيس الدولة من المؤامرات وتأسيس ملكية جديدة في فرنسا ومعنى هذا أن نابليون في حاجة إلى وريث وأنه بات يفضل لقب إمبراطور لأن لقب ملك أصبح شيئًا تافهًا، أما لقب إمبراطور فهم أعظم وأصبح نابليون وعمره ٣٤ سنة إمبراطورًا أما مظهره وعاداته وعلاقاته فلم يحدث فيها أي تغير بل لم يغير الإمبراطور من أسلوب حياته فهو يستيقظ في السابعة صباحًا ويستقبل الزائرين في التاسعة ويدون السكريترون ما يمليه عليهم طوال النهار، وحينما يسهر ليلا يتحتم على مينفال أن يكون في خدمته ليسجل ما يمليه نابليون ولا يستغنى عن نار الموقد والحمام الساخن وماء الكولونيا ، وتبديل ثيابه الداخلية مرتين يوميًا ونقشت العملة باسم إمبراطور فرنسا نابليون الأول، أما جوزفين فتملك ٧٠٠ ثوب و٢٥٠ قبعة، وتتكلف زينة شعرها ملايين الجنيهات ، وهو يسخط أحيانًا على تبذيرها، وأصبح أخوته من أصحاب السمو الإمبراطوري وتم عمل احتفال في كنيسة نوتردام لتنصيبه إمبراطورًا، ودعا البابا، وسار نابليون في معطف إمبراطوري أثري إلى الكاتدرائية في موكب عظيم تصحبه الإمبراطورة وحين تأتي لحظة مباركة الباب له يمد نابليون يده إلى التاج منتصب القامة شأنه في كل أدوار حياته، وعندما انتهى من

التتويج قال: «إنه أحب لنفسه أن يخوض معركة من أن يقلد نفسه تاج فرنسا، ومما لا يعرفه الناس عن نابليون خبرته الطويلة ومهارته الفائقة في رسم المدفع، وصبه وصناعة البديل وإصلاح كل عجلة فيه.

وقد قال نابليون لبعض خلصائه : «لن يسود الهدوء أوربا حتى تخضع لفرد واحد لإمبراطور يجعل الملك في عداد موظفيه ويوزع الممالك على قواده ويقلدهم جميعًا في نفس الوقت مناصب في البلاد» كل هذا كانت تغذية مخيلة نابليون.

خطة نابليون للزحف:

لم يمض عام على تتويج نابليون إمبراطورا على فرنسا حتى بدا أن إنجلترا أصبحت في حالة حرب ورابط نابليون منذ الربيع للاستعداد للنزول إلى إنجلترا وفجأة وصل إلى علمه أن النمسا سوف تهاجمه ، فحول نابليون جيشه عبر الراين لمواجهة النمسا، ووضع نابليون خطته في الزحف ومدتها ونقط الالتقاء وهجوم العاصفة وأخطاء العدو المتوقعة وذلك على مساحة مائتي ميل وقبل المعركة بشهرين، ولكن كانت النمسا قد عرفت فنون نابليون في القتال وصممت على أن تضربه بنفس سلاحه، لكن نابليون يحمل في صدره دائمًا أساليب جديدة لكل معركة فقد طوق الجيش النمساوي في هجوم خاطف مما يجعل جيشًا كاملًا يستسلم لنابليون، قبل أن يتمكن هذا الجيش من إطلاق قذيفة واحدة! وكان نابليون يلبس بدلة عسكرية لم يغيرها لمدة أسبوعين وعليه معطف أغبر محترق ويعيش في كوخ مغطى بالطين عليه قميص رث يتناول البطاطس والبصل ! وعرض نابليون الصلح على إمبراطور النمسا المهزوم في نفس الوقت الذي كان يزحف على فيينا عاصمته. ولكن وصل إلى نابليون خبر مؤلم وهو أن أسطول فرنسا المكون من ١٨ سفينة في الطرف الأغر قد حطمته إنجلترا ووقع أميرال

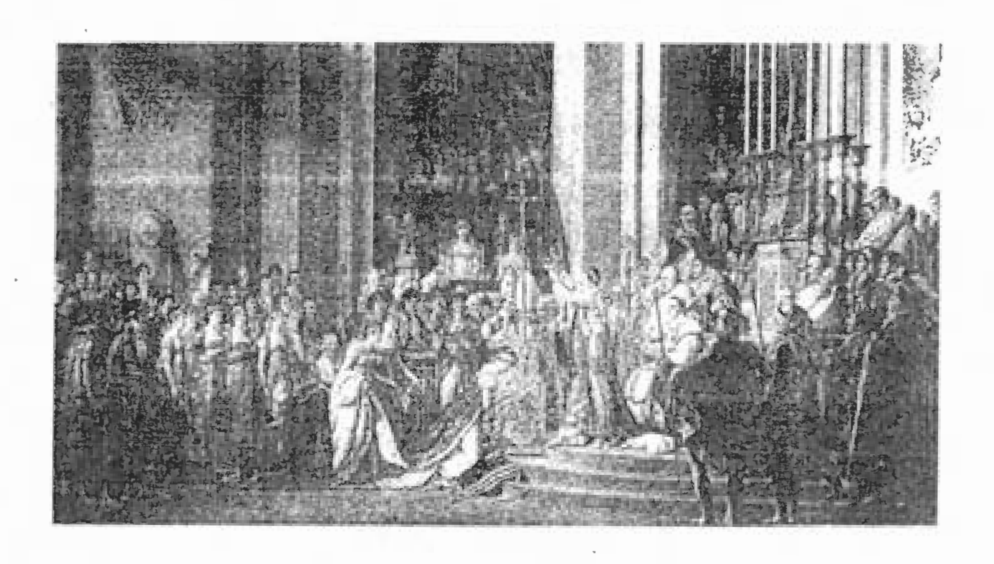
فرنسا في أسر الإنجليز وإن نلسون قد وقع في المعركة قتيلًا، ولكن نابليون انتصر في أوسترلتس ، وطلب الإمبراطور المهزوم من نابليون أن يستقبله في أحد القصور لكن نابليون استقبله في إحدى طواحين الهواء ، ويقول له ساخرًا: «آسف يا صاحب الجلالة في استقبالك في القصر الوحيد الذي لم أدخله منذ شهرين» وحصل نابليون من معركة إسترلتز على ٤٥ علمًا و ١٥٠ مدفعًا وأسر ٣٠ جنرالًا و ٣٠ ألف أسير وبلغ عدد القتلى ٢٠ ألفًا مشهد مرعب! ويعلق نابليون بعد هذه المعركة أن أوربا يجب أن تكون جامعة دول بزعامة فرنسا ، أما روسيا فمن قارة آسيا ، أما إنجلترا فهي جزيرة خارج القارة، ويرى أن يكون باريس عاصمة أوربا، وبعد بضعة شهور أصبح شقيقه يوسف ملكًا على نابلي ويصبح أمير بافاريا وورتمبرج ملكين ويختار من بيت بافاريا زوجة ويحتفظ بإحدى بنات ورتمبرج لأخيه الأصغر، ويجعل من ١٦ ولاية في جنوب وغربي ألمانيا مجموعة تابعة له وتمده بالجنود ويتزاحم أمراء هذه الولايات الألمانية الستة عشر على باريس يقدمون لنابليون فروض الطاعة، أما عن هولندا فوعد بتولية الأمير لويس عليها أو تدمج مع فرنسا، وهي تابعة له من فترة فإذا رفضت هولندا تعيين أخيه ملكًا عليها فلا بأس من ابتلاع فرنسا لها.

وتزوج جيروم الصغير من أمريكية بعد سفره إليها بحارًا، فيغضب نابليون لذلك فيأمر بحصار سفينتها في لشبونة، ويعاهد جيروم زوجته الشابة على الوفاء الأبدي. وعاشت أمه في باريس مهيبة الجانب في قصر تريانون وخصها بمليون جنيه، فكانت توفر منه جانبًا كبيرًا، وتقول : إن كل نعمة يمكن أن تزول فماذا يكون مصير أولادي لاسيما أنها تخشى على نابليون من كل معركة يشترك فيها.



الإمبراطور الحزين وعهد الإمبراطورية الأولى ١٨٠٤-١٨١٤ :

بهت البابا وكل من حضر حفلة تتويج نابليون سنة ١٨٠٤ في كنيسة «نوتردام» عندما اختطف نابليون التاج من بين يدي البابا ، فتوج نفسه بنفسه ، وتوج جوزفين الراكعة أمامه، وهكذا يمكن أن نقول : إن الأيام حققت حلم نابليون.



حفلة تتويج نابليون



في شهر مارس سنة ١٨٠٢ م عقد صلح أميان Amiens وبمقتضاه تعهدت إنجلترا بالمحافظة على حياد مالطة وعلى بقائها تحت حكم فرسان القديس يوحنا، ولكن إنجلترا اعتبرت أن هذا الصلح ما هو إلا هدنة مؤقتة، وظلت إنجلترا تحتل جزيرة مالطة فعلًا، وتقول إنجلترا: إن فرنسا أصبحت إمبراطورية أملاكها تتسع بصفة مستمرة، فأصبحت تضم هولندا، وجمهوريتا «الألب الشمالية» و«الهلفيينة» ، وتحاول فرنسا استرجاع

مستعمرة رأس الرجاء الصالح وجزيرة سان دومنجو إحدى جزر الهند الغربية وتحاول استرجاع مصر وترسم مشروعاتها للتوسع في الهند ، ويشتد ذعر أوروا من نابليون الذي أخذ هو الآخر ينقض وعوده فنقض عهده لبروسيا واستولى على هانوفر ولم يحافظ على حياد شمال ألمانيا ، اما إنجلترا فخلصت نفسها هي الأخرى من عهدها الذي اشترطته في صلح أميان عام ١٨٠٣م بشأن تخليها عن جزيرة مالطة ذلك لتوقعها استئناف الحرب مع فرنسا ، وأيدها في ذلك كل من روسيا وتركيا، وكل منهما كانت تخشى توسع نابليون في الشرق، وكان أمر التوسع سببا في قطع العلاقات بين فرنسا وإنجلترا عام ١٨٠٣م.

الحلف الأوربي الثالث ١٨٠٥ ضد فرنسا :

تتأزم الأمور في إنجلترا ويعود قيصر روسيا ليعدها لمحاربة فرنسا، وكان قيصر روسيا الشاب من ألد أعداء نابليون ، وكان يكره فرنسا لسلطانها على ألمانيا ، وكان يرى أن مطامع فرنسا في بعض مناطق الشرق الأدنى معوقًا لروسيا في السيطرة عليها لذلك انضمت روسيا إلى إنجلترا التي تعهدت بدفع مرتبات جند القوات الروسية وحماية تجارة روسيا في البحار، أما النمسا فقد انضمت إلى الحلف رغم تخوفها من نابليون الذي هددها مرتين الأولى أيام حكومة الإدارة والثانية أيام القنصلية في حملته على إيطاليا، كما انضمت السويد إلى الحلف وكان ملكها جوستاف الرابع قد تولى الحكم سنة ١٧٩٩م متعصبًا لمذهب لوثر، ويكره الثورة الفرنسية ومبادئها، وأسهمت باثنى عشر ألف جندي.

وهكذا تكون الحلف الأوربي الثالث من إنجلترا وروسيا والنمسا والسويد ضد فرنسا وأسبانيا، وأعلن هدفه وهو رد فرنسا إلى حدود بلادها ونشر السلم بين ربوع أوربا، ولكن حدثت عقبات وقفت في سبيل تنفيذ

أغراض الحلف منها أن الروس يخشون الحرب في أماكن بعيدة عن بلادهم كما شغلت النمسا باسترداد ما فقدته من أملاك بالإضافة إلى تفوق قوات نابليون من حيث التدريب والاستعداد لخوض المعارك وليس من حيث العدد، وكان نابليون مستعدًا لمضاعفة قواته وقت الحاجة.

معركة الطرف الأغر وقيام الحرب بين نابليون ودول الحلف الثالث:

بدأت الحرب بهزيمة الأسطول الفرنسي الإسباني في موقعة «الطرف الأغر» على يد الأسطول البريطاني بقيادة نلسون في ٢١ أكتوبر سنة ١٨٠٥م ولعله من المصادفات العجيبة أنه نفس الأسطول الذي حطم الأسطول الفرنسي في موقعة أبي قير البحرية في مصر سنة ١٧٩٨م، ولكن أمير البحر نلسون لقى مصرعه في هذه المعركة ، وهذا يؤكد تفوق بريطانيا الكبير في المعارك البحرية.

انتصار نابليون على النمسا:

خلال عامي ١٨٠٥ و ١٨٠٦ انتصر نابليون على النمسا وبروسيا وروسيا . ففي أكتوبر سنة ١٨٠٥ هزم النمسا في واقعة «أولم» ulm في ألمانيا ودخل العاصمة فيينا بسهولة، وعندما انضمت قوات القيصر عقب هذه الهزيمة إلى قوات الإمبراطور فرنسيس الثاني انتصر نابليون عليهما معًا في مورافيا Moravia في معركة أوسترلز Austertitz الشهيرة ، وذلك يوم ٢ ديسمبر سنة ١٨٠٥ ، ويطلق عليها المؤرخون «موقعة الأباطرة الثلاث» ، وترتب على ذلك انسحاب قوات جيش نابليون بعدة من ٦٠ ألف مقاتل.



مصير نابولي وهولندا:

عندما انسحبت القوة الفرنسية الموجودة في نابولي لتعاون القائد الفرنسي في «ماسينا» بشمال إيطاليا، انتهزت نابولي الفرصة واستعانت بجنود روس وآخرين إنجليز تصادف مرورها بشواطئها، فاضطر نابليون إلى إرسال جيش بقيادة أخيه جوزيف الذي انتصر، وعينه نابليون ملكًا عليها، كما عين نابليون شقيقه الثاني لويس ملكا على هولندا، وكان قد تزوج من ابنه جوزيفن ومن ذريتها نابليون الثالث الذي سيكون حكما بين مصر والشركة الفرنسية التي تنشئ قناة السويس أيام الخديو إسماعيل.

موقف بروسيا من تكوين اتحاد الراين:

كانت بروسيا تحلم في بناء إمبراطورية ألمانية على أنقاض إمبراطورية النمسا، وكان يمكن تحقيق ذلك قبل تكوين هذا الاتحاد، كما أن نابليون لم يف بوعده لبروسيا في تكيون اتحاد مماثل لبروسيا في شمال ألمانيا، وكانت ظروف بروسيا السياسية والعسكرية لا تعطيها الفرصة لتحقيق هذا الحلم لأن ملكها فردريك وليم الثالث الذي حكم من ١٧٩٧-١٨٤٠ كان يطمع في مساعدة نابليون، وله حزب يشايع فرنسا ويقاومه حزب من عامة الناس ضد سياسة حزب الملك.

فلما زار قيصر روسيا برلين عرض على بروسيا أن يساعدها بكل قواته، وعرف نابليون ذلك فاستعدت بروسيا للحرب خلال شهري أغسطس وسبتمبر سنة ١٨٠٦م، وفي أول أكتوبر تقدم سفير بروسيا في باريس بمذكرة إلى تاليران وزير الخارجية الفرنسية يذكره فيها بوعد فرنسا بإنشاء اتحاد في شمال ألمانيا تحت سيطرة بروسيا على أن تجلو القوات الفرنسية عن منطقة الراين خلال أسبوع واحد.

وأسرعت بروسيا فدخلت الحرب ضد فرنسا قبل وصول المدد الروسي وثمة خطأ آخر وقعت فيه بروسيا عندما تقدمت جيوشها إلى سكسونيا ، وكان من الأفضل أن تقف في مكانها، ونزلت الهزيمة الكبرى ببروسيا في معركة جينا Jena في ١٦ من أكتوبر سنة ١٨٠٦م بعد ساعات معدودة من حربها مع القوات الفرنسية التي أسرت أربعة آلاف جندي بروسي وقد استطاع لويس بونابرت شقيق نابليون وملك هولندا أن ينتهز هذه الفرصة ويحتل وستفاليا وجزءًا كبيرًا من هانوفر ، وشعر أهل بروسيا بالهوان لأن ملكهم فردريك الثالث قبل رشوة من نابليون تتمثل في منحه هانوفر مقابل امتناعه عن معاونة النمسا وقت محنتها وبالغ نابليون في إذلال أهل بروسيا عند إخراج سيف بطلهم العظيم فردريك الثاني من قبره وحمله مع نياشينه ومجموعة كبيرة من الصور والتماثيل أخذها معه، ولم يكتف نابليون بذلك بل أصدر ما أسماه المؤرخون «بمراسيم برلين الشهيرة» أن إنجلترا محاصرة بحريًا وحذر من الاتصال بها لأن ذلك يعتبر خيانة عظمى كما أعلن أن جميع رعايا بريطانيا في الدول المحالفة لفرنسا يعتبرون سجناء كما أمر بمصادرة أي مصنوعات أو سلع تجارية بريطانية ، ولذلك أمر أن يرابط على سواحل أوربا عدد كبير من رجال الجمارك والشرطة لتنفيذ سياسة الحصار القاري ضد بريطانيا.

خطة نابليون العاطفية :

اتسع نفوذ نابليون بعد معاهدة برسيورج وأراد نابليون أن يقيم إمبراطورية بونابارتية اسما ولحمًا ودمًا فقام بتزويج:

في ألمانيا :

١ - رينيه أوجين برهارنت «نائب ملك إيطاليا إلى ابنة ملك بافاريا.

٢ - ابنة أخت جوزفين «سيتفاني» إلى ابن غراندوق بادن.

٣- أخيه جيروم إلى ابنه ملك ورتمبرج «بعد أن طلقه من الأمريكية».

في إيطاليا :

١ - عين أخيه يوسف ملكًا على نابلي.

٢ - عين أوجين بن جوزفين نائب ملك على لمبارديا.

في هولندا :

عين أخيه لويس ملكًا على هولندا بعد قلب نظامها الجمهوري.

في ولايات الراين :

أقطع نابليون لمورا «زوج أخته كارولين» قطائع واسعة على حدود بروسيا الغربية، وقرر ١٥ أمير من أمراء ألمانيا الجنوبية وفي مقدمتها أصهاره ملكي بافاريا وورتمبرج وغراندوق بادن الانفصال عن الإمبراطورية الألمانية التابعة للنمسا وألغوا ولايات الراين المتحدة، وعقد الأمراء مع نابليون معاهدة تحالف في الحرب والسلم مما أدى بإمبراطور النمسا فرنسيس الثاني التي كانت تسيطر على ألمانيا وإيطاليا أن يتنازل عن لقب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة ويكفيه بإمبراطور النمسا.

صلح تلست Tilsit سنة ١٨٠٧ بين فرنسا وبروسيا:

تلست هذه إحدى المدن التي تقع على نهر نيمن Niemen في بروسيا الشرقية وتم عقد هذا الصلح بين فرنسا وبروسيا وأهم شروطه:

أولا : إعادة أملاك فريدك وليم في بروسيا القديمة وفي سكسونيا .

ثانيًا : موافقة ملك بروسيا على تنفيذ سياسة الحصار القارئ.

ثالثًا : تحويل أملاك بروسيا في بولندا إلى «دوقية وارسو» .

رابعًا: تشكيل مملكة «وستفاليا»، وتضم أملاك بروسيا في سكسونيا وأملاكها على نهر الراين وهانوفر هس كاسل وبعض الولايات الألمانية الصغرى، وجعل جيروم Jerame أصغر أخوة نابليون ملكًا عليها.

خامسًا: من شروط هذا الصلح أيضًا إعلان مملكة نابولي لجوزيف بونابرت ومملكة هولندا للويس بونابرت.

سادسًا: ولعل أهم شروط هذا الصلح توسط فرنسا لعقد صلح بين روسيا وتركيا وتوسط الروسيا في عقد صلح بين فرنسا وإنجلترا.

ونتيجة لهذا الصلح فقد بروسا نصف أراضيها وانخفض سكانها إلى النصف فأصبحوا خمسة ملايين فقط أما روسيا فقد اتسعت أراضيها فأخذت فنلندا من السويد وضمت بعض أملاك بروسيا في بولندا واعترفت بجميع التغيرات التي أحدثها نابليون في خريطة أوربا. وهذه هي الشروط المعلنة لصالح تلست، أما الشروط الست فكانت على روسيا تنفيذ سياسة الحصار البري ضد إنجلترا إذا فشلت في الوساطة بين فرنسا وإنجلترا وأن تضع روسيا قواتها البحرية مع قوات الدانمرك تحت تصرف نابليون لمحاربة إنجلترا وألا يتدخل الإسكندر قيصر روسيا في مشروعات نابليون في إسبانيا.

وفي عام ١٨٠٧ بلغ نابليون أقصى درجات القوة والنفوذ وفي سنة ١٨١١ بلغت أملاك نابليون أكبر اتساع.

وعندما علم جورج كانتج George Cahning وزير خارجية إنجلترا بالشروط السرية في معاهدة تلست استولى على الأسطول الدانمركي بكونهاجن في سبتمبر سنة ١٨٠٧م.



سياسة الحصار القاري وما ترتب عليها من نتائج:

فرض نابليون على فرنسا والدول الخاضعة لها تنفيذ سياسة منع التجارة مع إنجلترا ومنع السفن البريطانية من دخول مواني فرنسا وحلفائها وردت إنجلترا على ذلك «بأوامر المجلس» الصادرة في يناير سنة ١٨٠٧ وهي منع الدول المحايدة في أوربا من الاتجار مع فرنسا ووضع ممتلكات فرنسا في أوربا تحت حصار إنجلترا البحري، ولذلك كان رد إنجلترا عنيفًا، وكان نابليون يهدف من وراء سياسة الحصار القاري إلى الانتقام من إنجلترا لما وقع من أساطيلها في أبي قير سنة ١٧٩٨م ، وفي معركة الطرف الأغر سنة ١٨٠٥م ، وكان هدفه الحقيقي أن يحطم إنجلترا عن طريق تجارتها لأن من غير الممكن تحطيمها عن طريق قوتها البحرية الضاربة.

وترتب على هذه السياسة انتشار البطالة والإفلاس وكساد التجارة في بريطانيا ولو نجح نابليون في منع وصول القمح لإنجلترا لاضطرت إلى التسليم ، ولكنها عوضت خسائرها في التجارة عن طريق زيادة الإنتاج الصناعي بشكل لم يتوقعه نابليون.

أما فرنسا فازدهرت فيها الزراعة وعرضت بعض المنتجات الاستعمارية التي لم ترسل إلى فرنسا مثل السكر، فزادت من زراعة البنجر وجدير بالذكر أن سياسة الحصار أضرت بالدول الصديقة لفرنسا أكثر من فرنسا نفسها لاسيما هولندا التي يحكمها شقيقها لويس مما اضطره إلى التنازل عن عرشها ومع ذلك لم تتحسن أحوالها وضمت إلى فرنسا في يوليو سنة ١٨١٠.



نتائج الحصار القاري:

ما من شك أن أسلوب نابليون في الحصار القاري وقراراته إنما كانت أول مسمار في نعشه، وقد غفل نابليون رغم عبقريته الفذة النتائج التي يمكن أن تترتب على سياسته في حصار القارة وقد أخطأ نابليون حين

استخدم العنف في معاملة البابا عندما نفاه في مايو ١٨٠١ وسجنه في جرينبل Creenoble ثم ضم أملاكه لفرنسا، وأكره أسبانيا في معاهدة فنتنبلو Fontanibleau في أكتوبر سنة ١٨٠٧ على الاشتراك مع فرنسا في غزو البرتغال وتم لنابليون ذلك، ولكن القوات الفرنسية عبرت جبال البرانس وأجبر نابليون ملك إسبانيا وابنه وولي عهده بالتنازل عن جميع حقوقهما في العرش وأصبح جوزيف شقيق نابليون ملكًا على إسبانيا سنة ١٨٠٨ مما أساء إلى شعور الإسبان، ولهذا انتقم هؤلاء في يوليو سنة ١٨٠٨ من الفرنسيين فأخذوا دوبون Dup ont القائد الفرنسي ومعه ٢٣ ألف مقاتل فرنسي أسيرًا، وأثارت هذه الهزيمة دهشة أوربا، فشجعت الدول المعادية لفرنسا على الانتقام مما دفع الإمبراطور فرنسيس إلى رفض الاعتراف بجوزيف ملكًا على إسبانيا، ووجد نابليون أن النمسا وبروسيا تتحينان الفرصة للتخلص من سلطان فرنسا فدعا نابليون قيصر روسيا إلى لقاء في أرفوتر سنة ١٨٠٨م، واشتركا في إرسال دعوة إلى إنجلترا للصلح، فرفضت إنجلترا لإصرار القيصر والإمبراطور على الإبقاء على جوزيف ملكًا على عرش إسبانيا، وكان نابليون يهدف من اجتماع أرفورت هذا إلى إيهام العالم الأوربي لاسيما الدول المعادية لفرنسا أن صداقة نابليون لقيصر روسيا مازالت قائمة، واستجاب نابليون لرغبة القيصر في أن يجعل تحت سلطانه «ملدافيا» ولاشيا (الأفلاق والبغدان) ووافقه نابليون مقابل أن يراقب القصير حركات النمسا.

النمسا تعلن الحرب على فرنسا في ١٦ أبريل سنة ١٨٠٩:

أعلنت النمسا الحرب معتمدة على كثرة جنودها بالنسبة لعدد الجند الفرنسيين، ولكن نابليون الذي توقع هذه الحرب لم يهتم بنقص عدد المحاربين في صفوفه، فأسرع بمهاجمة قوات النمسا، فهزم الأرشيدوق

لويس ومعه تسعة آلاف مقاتل ثم أكمل انتصاره بهزيمة الأشيدوق شارل وأسر ٢٠ ألف مقاتل علاوة على الأسلحة التي حصل عليها من المعركة. ثم أخفق نابليون في عبور نهر الدانوب مايو سنة ١٨٠٩، فانتشرت الشائعات التي تهدد نفسية القوات الفرنسية لأن هذه الهزيمة في قيادة نابليون شخصيا ، ولكن نابليون لم يمض عليه شهران حتى نجح في عبور نهر الدانوب ، وانتصر على النمسا انتصارًا قاتلًا في معركة وإجرام Wagraim في يولية ١٨٠٩، وعقد نابليون صلح «شونبرن» مع النمسا فخسرت النمسا أربعة ملايين من سكانها حيث تنازل إمبراطورها مجبرًا على سالزبورج Saysbyrg وجزء من أعالي النمسا «لاتحاد الراين» كما تنازل عن جزء من بوهيما وتنازل لروسيا عن جزء من غاليسيا الشرقية ولفرنسا عن تريستا وبعض أجزاء من كرواتيا ودلماشيا وسلوفينيا، وبمقتضى ذلك أتم نابليون تكوين مملكة إيطاليا عندما ضم إليها تلك المقاطعات وحرم النمسا من آخر ميناء تمتلكه على بحر الأدرياتيك.

طلاق جوزفين:

أحب نابليون جوزفين حبًا جارفًا ولم تبادله هذا الشعور الجياش ، وعندما قام بحملته على مصر وصلته أنباء خيانتها فصمم على طلاقها عندما يعود إلى فرنسا ، ولكنه بمجرد لقائه بها تجدد حبه لها ، بل زاد لهيب هذا الحب إلى أن تم تعيينه قنصلًا أول مدى الحياة، ففكر في وريث خوفًا من أن تعود البلاد إلى الأخطار الداخلية والخارجية من بعده، ويقع النزاع بين زعماء فرنسا، وزادت هذه الأفكار عندما أصبح إمبراطورًا ، فعرض عليه أخوته طلاق جوزفين التي لا تنجب منه والزواج بإحدى أميرات البيوت المالكة، فرفض نابليون لأنه كان يشك أن العقم منه شخصيًا، لأنه تزوج من جوزفين الأرملة ولها ولدان من بوهارنيه زوجها الأول وفي يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٨٠٩ توجه نابليون بنفسه إلى جوزفين، وقال لها: «إن مصيري

يا جوزفين أقوى من إرادتي ، وإن أعز رغباتي لتطاطئ رأسها أمام صالح فرنسا»، فأغمى عليها في سراي التويلري.

وفي يوم ١٥ ديسمبر سنة ١٨٠٩ شهد البهو الأكبر في سراي التويلري منظرًا فريدًا نابلوين وجوزفين، وكل منهما يحمل ورقة سطرت عليها كلمات كان على كل منهما تلاوتها على رجال الدولة الذين استدعاهم القصر ليكونوا شهودًا على إعلان كل من الزوجين رضاءه عن فراق الآخر.

ورغم الطلاق فقد استمرت الصلة بينهما والخطابات الملتهبة من الطرفين حتى بعد أن تزوج ماري لويز ابنه إمبراطور النمسا التي أنجبت له «النسر الصغير» ملك روما فيما بعد وقد ودّع نابليون جوزفين عندما اعتزل الملك قبل رحيله إلى جزيرة البا، فانطفأ سراج حياتها بعد سفر نابليون بحوالي أربعة أسابيع وكان موتها نذيرًا بأفول نجم نابليون.



مراسيم برلين:

كان نابليون عبقرية عسكرية فذة يندر أن توجد مثلها في العالم، ولكن المشكلة أن أطماعه ليس لها حدود.

ولكن خوفه من قدرة بريطانيا البحرية التي تفوق قدرة فرنسا بضع مرات هي التي دفعته إلى محاربتها «بمراسيم برلين» التي أصدرها ١٨٠٦، وكانت عنصرًا بارزًا من العناصر التي قربت نابليون من نهايته . وثمة سبب آخر هو ازدياد أطماع وزير خارجيته تاليران الذي فاوض النمسا دون علم نابليون ووزير داخليته فوشيه الذي فاوض الإنجليز من وراء ظهر نابليون، ولما علم نابليون أقاله من الوزارة وأيضا برنادوت أحد قواد نابليون الذي أصبح ملكًا للسويد سنة ١٨١٠ وغير اسمه إلى الملك شارل جول Charles John تحول إلى المقاومة ضد نابليون. وجدير بالذكر أيضا أن زواجه من

ماري لويز ابنة إمبراطور النمسا (أملًا في أن ينجب وريث للعرش) سنة ١٨١٠ عقب صلح شونبرن في أبريل سنة ١٨١٠ بعد طلاقه من جوزفين فهذا الزواج السياسي آثار مشاعر الفرنسيين أنفسهم الذي يحبون جوزفين وصرفه عن صداقة روسيا كل هذا فضلا عن بناء عدد كبير من السجون في فرنسا زج فيها الفرنسيين لأتفه الأسباب وفي مقدمتها حرية الصحافة.

واهتزت العلاقات بين الإسكندر قيصر روسيا وبين نابليون ، وبدأ القيصر ذلك فعلًا عندما تباطأ في تقديم المساعدة لنابليون في واقعه «واجرام» وكان المتفق عليه أن يبلغ نابليون عن تحركات النمسا أولا بأول كما ظهرت خيانة القيصر أيضا من سياسة الحصر القاري التي فرضها نابليون فروسيا لم تنفذه بل على العكس فرضت ضرائب ومكوس مرتفعة على التجارة الفرنسية.



روسيا تحارب فرنسا :

وصل نابليون إلى سمولنسك Smolensk في أغسطس سنة ١٨١٢م بين نهر نيمن Nimen وموسكو وظل الروس يتراجعون أمام نابليون دون أن يمكنوه من اللقاء الحربي الذي أراده نابليون ، وانتهى نابليون في مسيرته إلى موسكو فوجد السكان قد هجروها وأحرقوا كل ما فيها من مؤن ، فعاد ونزلت بجيشه مصائب الجوع والبرد والمرض وفقد أكثر من ١٠٠ ألف جندي، فلما بلغ أوروا كانت معظم شعوبها قد تحولت إلى حلف يعادي نابليون، فشعب بروسيا أحاط بملكه ، وطلب منه التحالف مع روسيا انتقامًا لكرامته، فعقد معها معاهدة «كاليش» Kalish في فبراير سنة ١٨١٣ اتفق فيها الطرفان على عدم انفراد أحدهما بعقد. صلح منفرد مع فرنسا ، وتعهد فيها قيصر روسيا بأن يعيد لبروسيا ما فقدته من أملاك، كما أراد القيصر أن يتأكد من استعداد الشعب الألماني لقبول هذا الاتفاق ، فأعلن

على أمرائه أن من يتخلف منهم في محاربة نابليون سوف يفقد أملاكه في النهاية.



حرب ألمانيا التحررية:

هاجمت القوات الروسية والبروسية معًا القوات الفرنسية بقيادة نابليون الذي لم يلبث أن انتصر عليها في لوتزن Lettzen في اتحاد الراين والثانية في بوتزن Butzen يسيلزيا، وكان انتصار نابليون أشبه بالهزيمة لأنه فقد كثيرًا من جنوده وشعر أن الروح المعنوية بين جنوده لم يصبح لها وجود.



دور النمسا في حرب التحرير:

ظهر مستشار النمسا الأعظم مترنخ Metternich وهو من أشد أعداء نابليون فأرسل إلى نابليون شروط صلح لابد أن يرفضها نابليون، فلما حدث ما توقعه مترنخ أعلنت النمسا الحرب وانضمت إلى روسيا وبروسيا وحدثت معركة حاسمة انتهت بانتصارهم على نابليون في ١٦ أكتوبر سنة ١٨١٣م عرفت بمعركة الشعوب انتهت بأن فقد نابليون خمسين ألفًا من جنده، وهرب نابليون بما بقي من رجاله إلى الراين، حيث فتكت الأمراض بأكثرهم، ثم اكتملت المأساة بانسحاب قوات نابليون من إسبانيا على يد القائد ولنجتن Wellington البريطاني الذي عزم على غزو فرنسا من الجنوب، أما هولندا فقد أعلنت ولاءها «لبيت أورنج» وعقدت نابلي معاهدة مع النمسا وفقدت فرنسا نفوذها في إسبانيا.

ورغم هذه الظروف السيئة فقد استطاع نابليون أن يجند ٣٥٠ ألف مقاتل وانتصر في معركتين متتاليتين مما بث الخوف مرة أخرى في نفوس أعدائه وعرض أعداؤه الصلح في نوفمبر سنة ١٨١٣، وفيه اشترطوا أن

تحتفظ فرنسا بحدودها الطبيعية الراين وجبال الألب والبرانس فرفض نابليون وتأزمت الأمور في فرنسا فعرض أعداؤه صلحًا جديدًا في فبراير سنة ١٨١٤ يطلبون فيه من نابليون التنازل عن بلجيكا وسافوي فرفضه أيضا فقامت الحرب مع أعدائه فضرب جيش البروسيين في الشمال وجيش النمساويين في الجنوب مما يدل على عزيمة نابليون الجبارة رغم الظروف السيئة للجيش الفرنسي وقلة عدده بالنسبة لجيش الأعداء ولكن سرعان ما سقطت باريس.

انهيار البناء:

هطلت سماء المحن مدرارًا فوق رأس نابليون فقد تخلى عنه حلفاؤه المخلصون وخذلته فرنسا نفسها وأنكره أصحابه وأقاربه بل وأخوته فلجأ للأسف الشديد حلفاؤه إلى أعدائه وبذلك فقد نابليون كل ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا (التي استولى عليها الإنجليز) وهولندا أما أخوته فقد خرج عليه لويس أما جيروم ملك وستفاليا فقد هجر مملكته وشعبه كما رفض يوسف تولى القيادة العسكرية في باريس أما لوسيان فقد ضاع من زمن عندما تزوج من عامة الشعب ورفض فكرة نابليون في طلاقها والزواج من أميرة وتعيينه ملكًا.

غرائب الأحداث:

من غرائب الأحداث أن نابليون ظل ينتصر في تقهقره حتى بلغ أعداؤه باريس ، ووافق نابليون على اعتزاله الحكم ويأخذ جزيرة ألبا المتواضعة ليعيش فيها بقية حياته.

بعث نابليون برسوله كولنكور وزير خارجيته إلى قيصر روسيا الموجودة في باريس، وأفهمه القيصر برغبة الحلفاء في القبض على نابليون ونفيه

وعودة حكم أسرة البربون وطلب منه القيصر إقناع نابليون بالتنازل عن العرش لولده ملك روما لعله يستطيع إقناع الحلفاء بذلك وكتب نابليون نص التنازل «إنه لما كان الحلفاء قد أعلنوا أن الإمبراطور نابليون هو العقبة الوحيدة في سبيل عودة السلم إلى أوربا فإن الإمبراطور نابليون يعلن استعداده للنزول عن العرش وذلك من غير مساس بحقوق ولده ووصاية خلعت عليه والاحتفاظ بقوانين الإمبراطورية، وحدث تنازل يوم ٦ من أبريل سنة ١٨١٤م.

كان لدى نابليون أمل في قوة قائده مارنوتت وهي قوة فرنسية ولكن خاب أمله إذا انضم للحلفاء مما دفعهم للقول : إن نابليون لا يجب أن يضع شروطًا لتنازله. وكان حول نابليون بعض قواده المخلصين ، فطلب إليهم نابليون أن يساعدوه في الوصول إلى إطراف فرنسا ليحارب الحلفاء ، فلم يجب أحد منهم ، فطلب منهم أن يتركوه وحده.

في ١١ من أبريل سنة ١٨١٤م وضع الملوك شروط معاهدته ويمكن إيجازها فيما يلي:

١ - أن يحتفظ كل من نابليون وزوجته بلقب إمبراطور.

٢ - أن تحتفظ أم نابليون وكذلك إخوته بألقابهم.

٣ - منح نابليون جزيرة إلبا وتدفع الخزانة الفرنسية له ٢,٥ فرنكات مرتبا سنويا.

٤ - تمنح الإمبراطورية دوقية بارما وولاتين آخرتين تنتقل ملكيتها بعد وفاتها إلى ملك روما (ابنها) من نابليون.

٥ - إعطاء نابليون حرس قوامه ٤٠٠ رجل ممن يقبلون التطوع.

حاول نابليون تناول علاقة السم التي ظلت في عنقه منذ سنوات ، لكن الطبيب أسرع لإنقاذه عندما ظهرت عليه أعراض السم «يقال: إن خادمه

رآه يتناول السم من ثقب الباب» وقد كذب بعض المؤرخين هذا الحادث.

ووقع نابليون المعاهدة في موعدها وودعه حرسه الإمبراطوري وهو متأهب للسفر إلى منفاه في جزيرة ألبا التي تبعد عن فرنسا ٢٠٠ ميل.

رحيل نابليون إلى منفاه:

في ليلة ١٩ من أبريل سنة ١٨١٤ أقلعت به المركب البريطانية لأنه رفض السفر على مركب فرنسية عليها علم البربون ووصل إلبا بعد خمسة أيام واستقبل بإطلاق ١٠٠ طلقة مدفع تحية لقدومه وأشرف على نقل عفشه كسائح بسيط.

أما عن جزيرة إلبا فهي جزيرة صغيرة مساحتها ١٦ ميلًا مربعًا ويبلغ تعداد سكانها ١٣ ألف وأخذ بعد أن استراح بعض الوقت يجوب بجواده الجزيرة كلها ودرس إمكاناتها من معادن وملاحات وكروم وغابات.. وبدأ نابليون يحفر القنوات كما أنشأ مستوصفًا لعلاج المرضى واستولى على جزيرة صغيرة بجوارها كانت ملجأ للقرصان وابتسم نابليون لرفاقه قائلًا سوف تقول أوربا: إنني بدأت سلسلة فتوحاتي من جديد! كما أصدر أوامره بتطهير البيوت والثكنات وتنظيف الطرق والشوارع ومنع أي غريب عن الجزيرة من دخولها قبل التأكد من خلوه من الأمراض وبدأ عملية تجفيف المستنقعات وتنقية مياه الشرب.

وفي صيف سنة ١٨١٤ سافرت إليه أمه وأخته بولين وسعدت ليتشيا براحة ابنها وأرسل لزوجته أن تحضر إليه ولكنها وقت وصول رسالة نابليون كانت في أحضان ضابط نمسوي أعور!



عودة حكم أسرة البربون إلى فرنسا:

عندما اتخذ الحلفاء قرار إبعاد نابليون عن فرنسا لم يصادف هذا القرار تأييدًا لدى معظم الشعب الفرنسي الذي كان يكن كل الحب والإعزاز لشخص نابليون إمبراطورهم.

أصبح لويس الثامن عشر ملكًا على فرنسا وطلب منه القيصر بأن يترقى عرش فرنسا باسم الأمة وبموافقة مجلس الشيوخ لكنه أبى وقام بسن دستور جديد هدية منه إلى شعب فرنسا وملأ الوظائف بأعوانه من أسرة البربون وطرد من الوظائف الهامة كل من يشك في أن له ميولًا مع النظام الإمبراطوري وألقى علم الثورة المثلث الألوان ووضع مكانه العلم الملكي الأبيض واعتبر فترة حكم نابليون كأنها كانت حلمًا وليس حقيقة فذكر أنه تولى حكم فرنسا منذ تسعة عشر عامًا وقطع عن نابليون مرتبه الذي حددته معاهدة فونتنبلو.



الوليمة:

في يوم ٢٦ فبراير سنة ١٨١٥م أقامت بولين Pauline شقيقة نابليون وليمة فاخرة في إلبا دعت إليها ضابط الحرس الإمبراطوري وأعيان الجزيرة وعندما انتصف الليل اختلى نابليون بقائده برتراند Bertrand ودوريه Drouet وطلب منهما وقف جميع السفن في الميناء حتى يغيب نابليون في جوف البحر. وفي فجر يوم ٢٧ فبراير خرج نابليون في ألف من خلصائه وركبوا البحر وأخبرهم نابليون بأنهم في الطريق إلى باريس فكانوا في سعادة غامرة وأخذوا في تزييت وتشجيم أسلحتهم ويصلحون ملابسهم (بعد عشرة شهور في إلبا) وكان نابليون قد طبع منشورات ليوزعها في فرنسا داعيا الشعب إلى مناصرته ووصل خليج جوان (الذي كان قد وصله عندما سافر من مصر سنة ١٧٩٩) وواصل مسيرته حتى جرنوبل فقابلته أكبر قوة

حشدتها الحكومة لمواجهة نابليون الذي انطلق على صهودة جواده تاركا قوته الضئيلة حتى أصبح على قيد خطوات منهم وارتجل كلمات قليلة قائلًا لهم: «إن كان أحد منهم يريد قتل الإمبراطور فهذا صدري مفتوح له ! فكانت جرأة أذهلت الجنود ، فنكس أحدهم بندقيته فقلده الآخرون وهتفوا بحياة نابليون وتعززت قوة نابليون بمن انضم إليه من جنود الحكومة، أما الملك لويس الثامن عشر فوكل أمر الدفاع عن ممتلكاته إلى الكونت دارتوا Conte d'Arteoo أخيه والمارشال ناي قائده الماهر الذي وعد لويس بوضع نابليون في قفص حديدي يجره به إلى باريس ولكن ناي ما لبث أن تبين أن الجنود متمردون وأن الشعب ينضم إلى نابليون حتى أن مدينة ليون استسلمت لنابليون دون إطلاق رصاصة واحدة، وانسحب منها دارتوا لأن جانبًا من جيشه انضم لجيش نابليون، فأرسل نابليون بعد ذلك رسالة لناي يقول له فيها: إن المقاومة معناها حرب أهلية في فرنسا ، وأن الملك لويس الثامن عشر هرب من فرنسا، وأن عودة نابليون كانت بالاتفاق مع النمسا وإنجلترا بعد أن وضعتا شروطًا للتسوية، وأن الملك مورا صهر نابليون يسير في مقدمة جيش جرار يشد به أزر الإمبراطور فما كان من ناي إلا أن قابل نابليون بالعناق وانضم إليه وأخيرًا أشرف نابليون على باريس وحمله أهلها على أكتفاهم وذهبوا به إلى قصر التويلري.

حكومة المائة يوم:

جدير بالذكر أنه عندما دخل الحلفاء باريس في مارس سنة ١٨١٤م ونزل لهم نابليون عن الملك عقدوا «صلح باريس» مع فرنسا وتساهل فيه الحلفاء لأن هدفهم كان طرد نابليون وقد تحقق بوذا عقد المؤتمر في نوفمبر سنة ١٨١٤ في فيينا الذي استمر بضعة أسابيع لحل بعض المشاكل وكانت كل دولة تدعي نفسها! الفضل في طرد نابليون وعندما وصلهم خبر عودة

نابليون من إلبا وقفوا جميعًا ضد نابليون أما شخص نابليون فقد أصبح بدينا يميل إلى النوم كثيرًا وقلت حركته.



موقعة ووترلو:

أراد نابليون السلم مع جميع دول أوربا التي أصرت على ضرورة محاربته باعتباره عدوًا للعالم وعاملًا رئيسيًا في الإخلال بالأمن ، وليس من المعقول أن دول أوربا (وفي مقدمتها إنجلترا) التي أنفقت ٨٠٠ مليون جنيه، وفقدت ٢ مليون شخص في سبيل التخلص من نابليون ستقف مكتوفة الأيدي، ولذلك وضع دوق ولنجتون خطة القتال ، فاقترح تقسيم جيوش الحلفاء ثلاثة أقسام: الجيش الأول يطبق من بلجيكا أي من الشمال ويتألف من جيوش بروسيا وإنجلترا، أما الجيش الثاني فيزحف على فرنسا من الشرق ويتألف من جيوش بافاريا والنمسا، أما الجيش الثالث فيزحف على فرنسا من الجنوب الشرقي ويتكون من جيوش روسيا، على أن يبدأ الجيش الأول فورًا ثم يستعد الثاني ويتأخر الثالث في النزول إلى أرض المعركة ولكن الاكتفاء بالجيش الأول لأن المعركة الفاصلة وقعت في بلجيكا.

فعندما علم نابليون أن طلائع الجيوش الحلفاء بقيادة ولنجتن في بلجيكا سوف تزحف نحو حدود فرنسا بينما كان بلوخر البروسي على رأس قوة أخرى قاعدتها الراين زاحفة نحو غرب فرنسا ليلتقي بجيوش ولنجتن أسرع نابليون إلى لقاء كل منهما على حدة ، وغادر باريس يوم ١٢ من يونيو سنة ١٨١٥ م ، واستولى على شارلروا يوم ١٥ يونيه.



خطة نابليون العسكرية :

وكانت خطة نابليون تنحصر في إرسال جيوش شرقا للقاء بلوخر، وأرسل ناي شمالًا بغرب للقاء ولنجتن ويبقى هو بينهما ومعه قوة احتياطية يمد بها من يحتاج منها إلى معونته ، ولكن ضيع نابليون يومًا في استعراض قواته كان بلوخر قد استعد استعدادًا ضخمًا ، فقرر نابليون أن يشترك ومعه ناي وجروش ليدحر جيش بلوخر، وكانت معركة ليني Ligny من أعنف المعارك التي خاضعها نابليون واستمرت سبع ساعات من الثالثة بعد الظهر إلى العاشرة مساءً ، وتم النصر فيها لنابليون واندحر البروسيون انتصارًا لا يتصوره عقل ، وكانت هذه آخر المعارك التي انتصر فيها نابليون، ولكن المرض عاود نابليون في نفس اليوم فلم يرسل جروش للقضاء على فلول البروسيون إلا بعد يومين.

وفي هذا التاريخ كانت معركة ووترلو الشهيرة التي هزم الإنجليز فيها الفرنسيين هزيمة نكراء بعد أن انضم إليهم بلوخر ومعه ٥٠ ألف بروسي.



نابليون يخسر ووترلو:

خسر نابليون معركة ووترلو ، ولكنه لم يخسر شيئًا من سمعته الحربية فقد أجمع كبار القادة على أن خطة القتال التي وضعها نابليون كانت بارعة وضعًا وتصميمًا إنما خابت في الإخراج يوم ١٨ من يونيو سنة ١٨١٥م ، وبقى نابليون ٣٧ ساعة على ظهر جواده في فترة المعركة من ١٤ إلى ١٨ من يونيه سنة ١٨١٥م.

ووقع صك تنازله عن الملك من جديد يوم ٢٢ يونيه سنة ١٨١٥ وتشكلت حكومة مؤقتة برياسة فوشيه لتحل محل حكومته وطلب إليه

رئيسها مغادرة باريس فورًا وحاول الهرب إلى أمريكا ، وفعلا وصل إلى ميناء روشفور يوم ٣ من يوليو ، ولكنه وجد مياهها تعج بالسفن البريطانية ولديها الأمر بالقبض عليه حيًا أو ميتًا.

وفي ٢٩ يوليو أمرته الحكومة المؤقتة بمغادرة فرنسا في ٢٤ ساعة، وعرض عليه أحدهم أن يسلم نفسه إلى إنجلترا كلاجئ سياسي ، وفعلًا نقلته السفينة البريطانية حتى ميناء بليموث جنوب إنجلترا وأصدرت حكومة بريطانيا قرارًا باعتباره أسير حرب ونفته إلى جزيرة سانت هيلانة، وأرسل نابليون احتجاجه التاريخي في ٤ من أغسطس سنة ١٨١٥ م من على ظهر الباخرة من أنه لا يعتبر أسيرًا، ولكنه ضيف سلم نفسه بنفسه ، ولكن إنجلترا أكلته غيلة واغتصابًا.

وأخيرًا استسلم للقدر وأقلعت به السفينة في ٨ من أغسطس سنة ١٨١٥م مسرعة لأن جانبًا من الشعب البريطاني بدأ يتعاطف مع نابليون، وكان معه ٢٤ شخصًا من أتباعه ومريديه.

وهذه الجزيرة صخرة كبيرة في وسط الأوقيانوس تبعد عن أوربا بـ٦ آلاف من الأميال وبينها وبين أقرب منطقة في أفريقية ١٢٠٠ ميل ولها جوانب منيعة تقف ضد الأمواج، فتحول بين نسيم البر وبين باطنها، فكأنها أتون مستعر لاسيما في فصل الصيف ، وكان عدد سكان الجزيرة ٥٠٠ نسمة منهم ٢٥٠ جنديًا، والباقي من العبيد ولم يتعد أحد من سكانها سن الخمسين واستغرقت الرحلة سبعين يومًا حيث وصلت السفينة يوم ١٦ من أكتوبر سنة ١٨١٥م ، وكان نابليون يحمل معه سريره الذي نام عليه في ميدان أوسترلتز.

وكان نابليون ينام كل ليلة إلى ساعة متأخرة من النهار خلافًا لما اعتاده ثم يأخذ حمامًا ويتناول طعامه في الحادية عشرة ثم العشاء في السابعة مساء،

ولكن سرعان ما عاد إلى حياته السابقة فيقوم في الخامسة صباحًا فيخرج على ظهر جواده ولم ترتاح الحكومة الإنجليزية إلى تصرفات حاكم الجزيرة الأميرال كوكيرن لتسامحه مع نابليون ، فأرسلت مكانه هدسون لو الذي يحقد على نابليون حقدًا شخصيًا فعامله بكل غلظة ، وقلل كميات الطعام ومنع طبيبه الخاص وأرسل أصدقاءه خارج الجزيرة حتى يجعل نابليون وحيدًا.

وانتشرت في صحف أوربا هذه الأنباء مما دعا حكومة كل من الروسيا والنمسا إلى القول بأنها غير مسؤولة إذا توفى نابليون، وأصيب نابليون فعلا بقرحة في المعدة وأصبحت معدته لا تحتمل أي طعام وبدأت قواه تخور يومًا بعد يوم.

وعندما أحس نابليون بدنو أجله استدعى الأب فينالي، واعترف بخطايا حياته وقال: «إنني سعيد بأن أتممت واجباتي الدينية وإنني أموت في حضن المذهب الكاثوليكي وإنني أرغب في أن ترقد رفاتي على ضفاف نهر السين بين شعب فرنسا الذي أحببته حبًا جمًا ، وأسلم الروح في ٥ من مايو سنة ١٨٢١م ورفض هدسون لو أن يكتب على قبره كلمة الإمبراطور، كما طلب نابليون قبل موته أن يشق صدره ويخرج قلبه ويحفظه ويعطيه لزوجة ماري لويز.

مات لويس الثامن عشر سنة ١٨٢٤ م وهو الملك الرجعي الذي ألغى الديمقراطية ، وأعدم القائد الفرنسي ناي ، وترك نابليون في قبره المتواضع بسانت هيلانة يحرسه جندي بريطاني وتولى من بعده الملك شارل العاشر الذي اشتد ظلمه وجبروته وعامل الشعب معاملة قاسية دفعته إلى الثورة عليه، وتم خلعه سنة ١٨٣٠ وأعقبه الملك لويس فيليب ابن دوق أورليان الذي حاول إقامة حكم ديمقراطي واهتم بحركة الإصلاح داخل فرنسا وفي عهده أسفرت المفاوضات بين حكومتي إنجلترا وفرنسا على الاتفاق

على نقل جثمان نابليون إلى فرنسا وأرسل الملك ابنه رئيسًا للبعثة إلى سانت هيلانه ومعه معظم من كان حيا من رفقاء نابليون الذين قضوا معه مدة النفي وتحرسه سفينة حربية فرنسية وبعد ثلاثة شهور وصلوا الجزيرة ووجدوا جثة نابليون وعلى صدره الوشاح الأكبر ، كما وجدوا بين ساقيه قلبه موضوع في وعاء من الفضة وكان قد أوصى به لزوجته وحمل جثمانه إلى السفينة، وأطلقت ٣٠٠ طلقة من السفن الإنجليزية والفرنسية .

وفي فجر ١٥ من ديسمبر سنة ١٨٤٠ كانت الموسيقى تصدح في كل مكان في باريس ثم سمعت أصوات المدافع كالرعد ودقت نواقيس جميع الكنائس ، واجتمع كل من بقى حيا من جنود نابليون تحت قوس النصر المشهور وانتهى الركب الإمبراطوري إليس راي الأنفاليد التي تضم مفاخر فرنسا الحربية، والتي تقرر أن يوضع فيها جثمان الإمبراطور وتقدم رئيس البعثة إلى الملك قائلًا: «مولاي صاحب الجلالة أقدم لك جثمان الإمبراطور نابليون! فأجابه الملك بصوت جهوري «باسم فرنسا أتقبله» وتحققت رغبة نابليون فرقدت رفاته على ضفاف نهر السين بين ذلك الشعب الفرنسي الذي أحبه حبًا كبيرًا.

ولا تزال إلى اليوم شخصية نابليون بونابرت وحياته المليئة بالأحداث الجسام والانتصارات والتسلق الاجتماعي والسياسي حتى أصبح إمبراطورًا لفرنسا وسيدًا مطلقًا لكل قارة أوربا ثم هزيمته الأولى ونفيه إلى جزيرة إبلا قبل هزيمته النهائية ونفيه وموته الغامض في جزيرة سانت هيلانة، وقد أثبت طبيب الأسنان ستبرن فورشفور المتخصص في علم السموم والذي أثبت بتحليله لخصلات من شعر نابليون بيعت في مزاد بعد موت الإمبراطور أن نابليون سممه عميل لأسرة البربرن الملكية الفرنسية، وكان يعمل خادمًا له في سانت هيلانة بالزرنيخ على مدى سبعة شهور.

نهاية نابليون كما يراها المؤرخون

بداية النهاية النفي إلى جزيرة القديسة هيلانة :

اعتُقل نابليون وسُجن لفترة قصيرة، ثم نُفي إلى جزيرة القديسة هيلانة في وسط المحيط الأطلسي الجنوبي بين أفريقيا والبرازيل، والتي تبعد ٢,٠٠٠ كيلومتر تقريبًا عن كلاهما. عاش نابليون أول شهرين له على الجزيرة في منزل على أرض مملوكة لشخص يُدعى وليام بالكومب، وسرعان ما أصبح صديقًا مقربًا لأفراد العائلة، وبشكل خاص للابنة الصغرى إليزابيث لوسيا، التي ألّفت في وقت لاحق كتاب ذكريات الإمبراطور نابليون (بالإنجليزية: Recollections of the Emperor Napoleon). انتهت هذه الصداقة في عام ١٨١٨، عندما شكّت السلطات البريطانية بأن بالكومب يلعب دور الوسيط بين نابليون وباريس، فقامت بترحيله من الجزيرة.

نُقل نابليون بعد ذلك إلى منزل لونكوود في شهر ديسمبر من سنة ١٨١٥؛ وكان ذلك المنزل شديد العطب كثير الرطوبة، تعصف به الرياح على الدوام. نشرت صحيفة الأزمان البريطانية عدّة مقالات تقول فيها بأن الحكومة البريطانية ترغب بالتسريع من موت بونابرت، وأن الأخير دائمًا ما اشتكى من ظروف العيش السيئة في رسائل موجهة إلى حاكم الجزيرة السير هدسون لوي.

وفي تلك الفترة، قام بونابرت بكتابة ذكرياته بمعاونة ثلة من تابعيه المخلصين الذين حضروا معه إلى الجزيرة، وانتقد فيها آسروه وبشكل خاص الحاكم لوي. يتفق العديد من المؤرخين أن معاملة لوي لنابليون كانت

معاملة رديئة، فقد أقدم على جعل وضعه يتفاقم بعدة طرق منها: الإنقاص من حجم المصروف الذي كان يُرسل إليه، منع إرسال أو تسليم أي هدية إليه إن كانت تتضمن ذكراً لمنصبه الامبراطوري، ووثيقة كان على تابعيه التوقيع عليها وهي تضمن بقائهم إلى جانبه إلى أجل غير مسمى.

في سنة ١٨١٨ م نشرت صحيفة الأزمان إشاعة كاذبة تُفيد بأن نابليون هرب من الجزيرة، كما قيل أن عدد من اللندنيين استقبل هذا الخبر بالإضاءات العفوية.

حصد نابليون خلال الفترة التي قضاها في الجزيرة تعاطف بعض أعضاء البرلمان البريطاني، فقد ألقى اللورد هنري ڤاسل فوكس، أحد كبار السياسيين، خطابًا قويًا في إحدى الجلسات طالب فيه ألا تتم معاملة نابليون بقسوة غير ضروزية.

وفي هذا الوقت كان نابليون يُتابع ما يجري في بريطانيا عن طريق ذات الصحيفة التي نشرت خبر هروبه، فتأمّل أن يتم إطلاق سراحه بحال أصبح فوكس رئيسًا للوزراء. حصل نابليون كذلك على دعم اللورد طوماس كوكران الذي دعم حركة الاستقلال في كل من تشيلي والبرازيل، ورغب في إنقاذ نابليون ومساعدته على إنشاء إمبراطورية جديدة في أمريكا الجنوبية، إلا أن هذه الخطة أحبطت بوفاة نابليون سنة ١٨٢١ م.

كان هناك أيضًا عدد من الخطط الأخرى الهادفة لإنقاذ نابليون، منها الخطة التي وضعها الجنود الفرنسيون الذين نفوا إلى ولاية تكساس الأمريكية، ورغبوا في قيام إمبراطورية نابليونية جديدة في أمريكا الشمالية، حتى أنه يُقال بوجود خطة قضت بتهريب بونابرت عن طريق غواصة بدائية. كان نابليون بالنسبة للورد جورج جوردن بايرون، وهو أحد الشعراء الإنجليز، مثال البطل الرومانسي المضطهد والعبقري الوحيد المعيب. أثارت مسألة قيام نابليون بأعمال البستنة بنفسه في مسكنه بلونگوود في

سنواته الأخيرة، حساسية وتعاطف الكثير من أبناء الشعب البريطاني والسياسيين معه بشكل أكبر من السابق.

أخذت صحة نابليون بالتراجع تراجعًا حاداً في شهر فبراير من سنة ١٨٢١، وفي الثالث من مايو كشف عليه طبيبان بريطانيان كانا قد وصلا مؤخراً إلى الجزيرة، ولم يستطيعا لأن يفعلا له شيئًا سوى النصيحة بإعطائه المسكنات.

توفي نابليون بعد يومين من هذا الكشف، بعد أن كان قد اعترف بخطاياه ومُسح بالزيت وقُدم له قربانًا بحضور الأب أنجي ڤيگنالي.

وكانت آخر كلمات نابليون وهو يُفارق الحياة هي: فرنسا، جيش، قائد جيش، جوزفين.. (بالفرنسية: France, armée, tête d'armée, Joséphine).

صُنع قناع الموت الأصلي لنابليون قرابة السادس من مايو من نفس العام، على يد طبيب مجهول الهوية.

كان نابليون قد أوصى بأن يُدفن على ضفاف نهر السين بعد وفاته، إلا أن حاكم الجزيرة رفض نقل الجثمان إلى الأراضي الفرنسية وأمر بدفنه على الجزيرة في مكان يُقال له وداي الصفصاف (بالإنجليزية: Valley of the Willows). كذلك أصرّ الأخير على نقش عبارة نابليون بونابرت على شاهد القبر؛ بينما رغب كل من شارلز تريستان مركيز مونتلون، وهنري گاتين برتران أحد القادة العسكريين السابقين، بأن يُكتب اسم نابليون فقط على القبر نظراً لأن العادة جرت على ألا يُكتب سوى الاسم الأول من اسم الملك الراحل على شاهد قبره. وبسبب هذا الخلاف، تُرك القبر دون نقش أي اسم على شاهده.

وفي سنة ١٨٤٠، استطاع الملك لويس فيليب الأول أن يستحصل على إذن من الحكومة البريطانية لنقل رفات نابليون من جزيرة القديسة هيلانة

إلى فرنسا. نُقلت الرفات على متن الفرقاطة الفرنسية المُسماة الدجاجة الحسناء (بالفرنسية: Belle-Poule)، والتي طُليت باللون الأسود حداداً خصيصًا لهذه المناسبة، وعاد معها من بقي على قيد الحياة من رجال نابليون وأتباعه بعد أن غابوا عن وطنهم الأم حوالي ٢٢ سنة. وصلت تلك السفينة إلى ميناء مدينة شيربورغ بتاريخ ٢٩ نوفمبر من نفس العام، ومن ثم نُقلت الرفات على متن سفينة بخارية تحمل اسم نورماندي، فحملتها إلى مدينة لو هافر عبر نهر السين وصولاً إلى مدينة روان فباريس. وبتاريخ ١٥ من ديسمبر أقيمت جنازة رسمية للقائد الفرنسي، ثم انطلق موكب التشييع من قوس النصر عبر شارع الشانزلزيه مروراً بميدان الكونكورد وصولاً إلى مجمّع المقام الوطني للمعوقين، حيث وُضع النعش في مُصلى كنيسة القديس جيروم، وبقي هناك حتى أتمّ المصمم والمعماري لويس ڤيسكونتي بناء الضريح. وفي سنة ١٨٦١، وُضعت رفات نابليون في نعش مصنوع من الرخام السمّاقي، في السرداب الواقع تحت قبة المقام الوطني للمعوقين.



سبب الوفاة

تعددت الأقوال والآراء حول سبب وفاة نابليون، فقال طبيبه الخاص، المدعو فرانشيسكو أنطومارشي، والذي أجرى تشريحًا لجثته، إنه مات بسرطان المعدة، إلا أنه لم يوقع على تقرير الكشف الرسمي الذي طالبت به السلطات البريطانية على الجزيرة على الرغم من ذلك قائلاً: ما شأني والتقارير الإنجليزي.

وكان والد نابليون قد توفي بنفس المرض سالف الذكر، على الرغم من أن ذلك لم يكن معلومًا عند التشريح.

يعتبر بعض المؤرخين أن اكتشاف طبيب نابليون الخاص لهذا التقرّح الحاد في معدته لم يكن إلا ثمرة ضغط البريطانيين عليه؛ إذ إن هذا كان من

شأنه أن ينفي التهم الموجهة إليهم بتعمدهم إضعاف الإمبراطور وإهمالهم العناية بصحته.

نُشرت مذكرات خادم نابليون لويس مارشان التي يذكر فيها الشهور الأخيرة من حياة بونابرت في سنة ١٩٥٥، وقدّ أدى وصفه لنابليون في تلك الفترة إلى جعل خبير السموم السويدي ستين فروشوفود يضع نظريات أخرى حول كيفية موت القائد الفرنسي، ومنها التسميم المتعمد بالزرنيخ، وذلك في مقال له في نشرة الطبيعة العلمية سنة ١٩٦١.

كان الزرنيخ يُستخدم كسم قاتل خلال الحقبة الزمنية التي عاش بها بونابرت بسبب أنه لم يكن قابلاً للكشف بحال تم دسه بكميات ضئيلة على فترة طويلة من الزمن. كتب فروشوفود في مؤلف له ولزميله بن ويدر من سنة ١٩٧٨، أن جسد الإمبراطور ظل سليمًا إلى حد كبير بعد عشرين عامًا من وفاته، وهذه إحدى خصائص الزرنيخ، أي الحفاظ على الأنسجة الحيوية. كذلك اكتشف الزميلان أن نابليون كان يُعاني من ظمأ شديد في أيامه الأخيرة، وأنه دائمًا ما حاول إرواء نفسه بشرب كميّة كبيرة من شراب اللوز ذي نسبة مركبات السيانيد نفسها الموجودة في حبّات اللوز الناضجة، والتي تُستخدم لإضفاء النكهة على المأكولات والمشروبات، وذكرا أن معالجته باستخدام بوتاسيوم الطرطيك منعت معدته من لفظ هذه المكونات المضرة، وبالتالي فإن العطش كان إحدى عوارض التسمم. نصت إحدى المقالات العلمية في سنة ٢٠٠٧ أن الزرنيخ الذي عُثر عليه في مهاوي شعر بونابرت كان زرنيخًا معدنيًا، أي غير عضوي، وهذا النوع هو الأكثر سُمية بين أنواع الزرنيخ، ووفقًا لعالم السموم باتريك كينتز، فإن هذا يُشكل الدليل القاطع على أن نابليون قضى نحبه اغتيالاً.

يقول باحثون آخرون أن ورق الجدران في منزل لونگوود كان قد أُلصق باستخدام نوع من اللاصق ذي نسبة عالية من الزرنيخ، وكان هذا اللاصق

يُستخدم في بريطانيا منذ فترة طويلة على الرغم من أن استنشاق رائحته مضر للبشر، ذلك أن الطقس البارد في المملكة المتحدة يجعل منه حميداً غير مؤذ، أما في جزيرة القديسة هيلانة، حيث الطقس أكثر رطوبة، فيُحتمل أنه قد دبّ إليه التعفن، الأمر الذي جعله يبعث غاز الأرسين السام الذي استنشقه نابليون طيلة سنوات. استُبعدت هذه النظرية من ضمن باقي النظريات لأنها لا تشرح نمط استنشاق الزرنيخ كما في النظريات الأخرى. زعمت مجموعة من الباحثين في دراسة أجروها سنة ٢٠٠٤، أن وفاة نابليون جاءت نتيجة أنواع العلاج المختلفة التي خضع لها، والتي سببت له اضطرابًا في وظيفة قلبه.

ظهرت بضعة دراسات حديثة تدعم النظرية الأصلية القائلة بوفاة نابليون جرّاء إصابته بسرطان المعدة.

ففي دراسة تمت سنة ٢٠٠٨، قام الباحثون بتحليل عينات شعر تعود لبونابرت مأخوذة منه خلال مراحل مختلفة من حياته، ومن أفراد عائلته وبعض الذين عاصروه كذلك الأمر. وبعد إجراء التحاليل على تلك العينات تبيّن أن كلها تحوي مستويات مرتفعة من الزرنيخ، تفوق المستويات الحالية بمائة مرة.

وبناءً على هذا، قال الباحثون أن جسد نابليون كان قد خزّن نسبة كبيرة من الزرنيخ منذ أن كان صبيًا واستمر يُخزنها طيلة حياته؛ ذلك أن الناس في ذلك الزمن كانوا عرضةً إلى روائح الغراء والأصباغ بصورة مستمرة طيلة حياتهم.وفي دراسة من عام ٢٠٠٧م، تبين أنه لم يكن هناك من دليل على التسمم بالزرنيخ في الأعضاء الأكثر عرضة له، فقيل: إن سبب الوفاة هو سرطان المعدة بالفعل.



زوجته وأبناؤه

تزوّج نابليون لأول مرة عندما بلغ السادسة والعشرين من عمره، من أرملة إحدى قادة الثورة الفرنسية، واسمها جوزفين آل بوارنيه التي كانت تكبره بست سنوات. كانت جوزفين تُعرف باسم تبغضه بغضًا شديداً طيلة الفترة السابقة على معرفتها بنابليون، وهو روز، فلمّا عرف نابليون بذلك أطلق عليها اسم جوزفين عوضًا عن اسمها الأول. غالبًا ما كان بونابرت يُرسل إلى زوجته رسائل غرامية عندما كان يخوض حملاته العسكرية بعيدةً عن فرنسا، وقد أقدم على تبني ابنها من زوجها السابق، المدعو يوجين، بشكل رسمي، وكذلك ابنة عمها ستيفاني، وزوّجهما لبعضهما في وقت لاحق، كذلك قامت جوزفين بتزويج ابنتها هورتنس من لويس شقيق نابليون.

كان لجوزفين عدد من العشّاق الذين تقربوا منها خلال غيبة نابليون عن فرنسا، مثل شارل هيپوليت، الذي كان يعمل ملازمًا في وحدة الهوصار وعشق جوزفين خلال حملة بونابرت على إيطاليا.

علم نابليون بهذه العلاقة بين زوجته والملازم عندما كان في مصر، فأرسل إلى أخاه جوزيف يُخبره عن هذا الموضوع، فاعترض البريطانيون الرسالة وقاموا بنشرها في الصحف اللندنية والباريسية، مما أثار إحراج نابليون أمام جنوده وشعبه. كان لنابليون عدد من العلاقات الجانبية كذلك الأمر، بما فيها علاقة غرامية وقعت أحداثها خلال الحملة المصرية، مع زوجة أحد ضباطه المدعوة پولين بيليسل فور، التي أُطلق عليها اسم كليوبترا تيمنًا بحاكمة مصر الفرعونية القديمة.

أنجب نابليون عدداً من الأولاد من عشيقاته، إلا أنه لم يُخلف أي وريث من زوجته جوزفين، ويُرجّح البعض أن عدم مقدرة جوزفين على الإنجاب كانت تعود إلى الإجهاد والضغط النفسي الذي تعرضت له عند سجنها خلال عهد الإرهاب (٢٧ يونيو ١٧٩٣ – ٢٧ يوليو ١٧٩٤)، أو بسبب إجهاضها عندما كانت لا تزال في العشرينيات من عمرها.

قرر نابليون بعد سلسلة من المحاولات الفاشلة أن يطلق وجوزفين، حتى يستطيع أن يتزوج مجدداً بامرأة قادرة على أن تنجب له وريثًا، فأقدم في شهر مارس من سنة ١٨١٠ على الزواج بأرشيدوقة النمسا وقريبة الملكة السابقة ماري أنطوانيت، المدعوة ماري لويز، وبهذا كان قد صاهر الأسرة الملكية الألمانية. استمر زواج ماري لويز ونابليون حتى وفاة الأخير، على الرغم من أنها لم تلحق به إلى جزيرة ألبا عندما نُفي للمرة الأولى، وبالتالي لم تره بعد ذلك أبداً. ولدت ماري لويز طفلاً وحيداً لنابليون عُرف باسم نابليون فرنسيس جوزيف شارلز (١٨١١–١٨٣٢)، الذي حمل لقب ملك روما منذ ولادته، ثم خُلع عليه اسم نابليون الثاني سنة ١٨١٤، إلا أنه لم يحكم فرنسا إلا أسبوعين قبل أن يُخلع عليه لقب دوق المدينة الإمبراطورية المستقلة سنة ١٨١٨. توفي نابليون الثاني جرّاء داء السل عن عمر يُناهز ٢١ سنة، ولم يترك وراءه أي ذريّة.

اعترف نابليون بإنجابه لطفلين غير شرعيين: شارل ليون (١٨٠٦–١٨٨١) من إليانور دونول،الكونت ألكسندر جوزيف كولونا ڤالڤسكي (١٨١٠–١٨٦٨) من الكونتيسة ماري ڤالڤسكا.

كذلك يُحتمل أن يكون قد أنجب أبناءً وبنات أخرين لم يُعلن عنهم، مثل كارل يوجين ڤون مولفلد من ڤيكتوريا كراوس؛ هيلين نابليون بونابرت (١٨١٦–١٩١٠) من ألبين آل مونتلون؛ وجول بارثيلامي سان هيلير من أم مجهولة.

الصورة الشعبية:

أصبح نابليون يُشكل رمزاً بارزاً للعبقرية الحربية والدهاء السياسي في العديد من الثقافات حول العالم، وذلك بعد أن انتشرت قصته وذاع صيته في الدول والمناطق المحيطة بفرنسا في أيامه، وفي جميع أرجاء المعمورة في وقت لاحق، مع تقدم وسائل الاتصال المواصلات وانتشار الاستعمار والانتداب الأوربي في دول متعددة. كان لنابليون أعداء كثيرون يكرهونه ولكن يكنون له عظيم الاحترام في ذات الوقت، فعندما سُئل أمير البحر، الدوق الأول لويلينجتون آرثر ويلزلي قائد الجيش البريطاني في معركة واترلو الشهيرة عن أعظم قائد عسكري في وقته، قال:

إن أعظمهم في الماضي والحاضر والمستقبل وكل وقت هو نابليون بونابرت.

أُطلق اسم نابليون على الكثير من البلدات والشوارع والسفن بعد وفاته، وعلى بعض شخصيات الرسوم المتحركة حتى في وقت لاحق. كذلك لعب الكثير من الممثلين دوره في مئات الأفلام السينمائية والتليفزيونية، وتم تأليف الكثير من الكتب عن حياته وكُتبت عنه آلاف المقالات.

صُور نابليون من قبل الصحافة البريطانية خلال عهد حروبه على أنه طاغية جبار يُشكل خطراً على بريطانيا وإنه يستعد لغزوها في القريب العاجل. وقد بلغ حد تشويه صورة نابليون في بريطانيا خلال ذلك العهد، أن نُظمت قصيدة للأولاد الصغار ونُشرت في الكثير من الحضانات، وهي تُحذر الأطفال من عدم الشقاوة، ذلك لأن نابليون يُقدم على التهام الناس الأشقياء بنهم.

كانت الصحافة المحافظة في بريطانيا تُصور نابليون على أنه أقصر مما هو عليه في بعض الأحيان، وقد انتشرت هذه الفكرة واستمرت سائدة لدى

الناس لسنوات طويلة بعد انتهاء عهد نابليون وما زالت. يُعزى تصوير بونابرت بهذه القامة أيضًا إلى الارتباك والخلط بين وحدات القياس الفرنسية والبريطانية؛ وفي واقع الأمر يُعتبر نابليون مربوع لقامة وفقًا للزمن الذي عاش فيه، حيث كان العديد من الناس يبلغون ذات الطول الذي كان عليه، ألا وهو ١.٧ أمتار (٥ أقدام و ٧ إنشات).

استشهد العالم النفسي ألفرد أدلر بنابليون سنة ١٩٠٨، ليصف عقدة نقص يعاني منها الناس قصار القامة، حيث يُظهرون سلوكًا عدائيًا غير عادي ليعوضوا عن افتقارهم للطول الطبيعي؛ فأطلق على هذه الحالة المرضية اسم عقدة نابليون. غالبًا ما يظهر نابليون في الرسوم الهزلية وأفلام الرسوم المتحركة وهو يرتدي قبعة ضخمة هلالية الشكل واضعًا يده في صدارته، استشهاداً برسم لجاك لويس دايفيد من سنة ١٨١٢.



إرثه:

الشؤون الحربية:

لعب نابليون دوراً كبيراً في تطوير الإستراتيجيات العسكرية الحديثة، وذلك عن طريق اقتراضه لبعض نظريات المنظرين السابقين، مثل جاك أنطوان هيپوليت كونت غيبرت، وبعض الإصلاحات التي وضعتها الحكومات السابقة لقطاع الجيش، وعن طريق إبداعه لبعض الإستراتيجيات الأخرى وتطوير بعض من تلك التي كانت موجودة سابقًا وصهره لها وتلك القديمة في بوتقة واحدة. ومن الإصلاحات التي قام بها نابليون، استكمال السير في النظام الذي أقرته الثورة الفرنسية، ألا وهو ترقية عناصر الجيش بناءً على الجدارة بشكل رئيسي، كذلك جعل من الفيالق أكبر الوحدات العسكرية بدلاً من الكتائب، ودمج جميع وحدات المدفعية في بطاريات احتياطية، الأمر الذي جعل من نظام الموظفين العسكريين نظامًا

أكثر سلاسة، فعاد سلاح الفرسان ليُشكل جزءاً مهمًا من الجيش الفرنسي. تُعتبر هذه الأساليب والإصلاحات التي قام بها نابليون أساليبًا بارزة وأساسية من الشؤون الحربية في العهد النابليوني.

وعلى الرغم من أن نابليون انتهج مبدأ التجنيد الإجباري الذي فرضته حكومة الإدارة وسار به طيلة عهده، إلا أن النظام الملكي أقدم على إلغائه بمجرد سقوط الإمبراطورية وعودة لويس الثامن عشر ليتربع على عرش فرنسا.

استمرت التقنية العسكرية وأنواع الأسلحة على حالها طيلة عهد الثورة والإمبراطورية، ولم يطرأ عليها أي تغيّر يُذكر، إلا أن نظرية الحركة التشغيلية التي كانت قد ظهرت خلال القرن الثامن عشر، تعرّضت لتغيير جذري.

ويبقى الأثر الأكبر لنابليون هو نمط قيادة الجنود، حيث يراه البعض مثل المنظّر العسكري الكبير كارل ڤون كلاوزڤيتس عبقريًا حقيقيًا في مجال الفنون الحربية، كذلك يُصنف المؤرخون نابليون على أنه من أعظم القادة العسكريين على مر الزمن.

وعلى الرغم من نبوغه العسكري وحنكته ودهائه، فقد تعرّض نابليون لعدد من النكسات خلال مسيرته العسكرية، منها: في معركة الأمم سنة ١٨١٣، في حملته على روسيا سنة ١٨١٢، وفي معركة آسپيرن-إسلينغ سنة ١٨٠٩ بحسب رأي البعض. كذلك، فقد اضطر إلى أن يهجر قواته في مصر كنتيجة لفشل إستراتيجيته في قتال العثمانيين والبريطانيين والروس معًا، وليس لخسارته أمامهم في أرض المعركة. انتصر نابليون في جميع المعارك التي خاضها وجهًا لوجه مع أعدائه، ولم تكن أعداد جنودهم تفوق أعداد جنوده، عدا معركتين صغيرتين خاضهما أثناء حملته على إيطاليا. يقول المؤرخون: إن نجاح نابليون الفائق كان هو بذاته أحد عيوبه، إذ إن هذا النجاح حمل في طياته بذور الهزيمة الكبيرة التي تعرض لها في وقت لاحق،

إذ إنه كان يستمر في الغزو وفتح المدن والولايات إلى أن يُنهك وجيشه إنهاكًا تامًا ولا يعد بإمكانه التقدم أكثر، فيرجع على أعقابه.

برز نوع من الصرامة تجاه كيفية لقاء جيوش الأعداء وقتالها والتفوق عليها في المناورة خلال عهد نابليون، فأصبح غزو الأراضي المعادية يتم على جبهات أكثر اتساعًا، الأمر الذي جعل من الحروب أكثر حسمًا ولكن أكثر كلفةً. وقد أدّى هذا الأمر بدوره إلى تغيير وجه التأثير السياسي للحروب في أوربا، فأصبحت الدولة الخاسرة تفقد أجزاءً كبيرة من أراضيها لصالح المنتصرة، عوضًا عن خسارتها لبعض من جيوبها المعزولة كما في السابق، كذلك ازدادت نسبة معاهدات السلام التي فرضتها الدول القوية على تلك الضعيفة بشروط وبنود تصب في مصلحتها.

النظام المتري:

لم تتقبل طبقات واسعة من الشعب الفرنسي النظام المتري في القياس الذي أعلنه نابليون رسميًا في شهر سبتمبر من عام ١٧٩٩، ومع ذلك أصبح هذا النظام متبع ليس فقط في فرنسا بل بالدول لتي تأثرت بفرنسا، وفي عام ١٨١٢ اتخذ نابليون خطوة عكسية بعد أن أصدر مرسومًا بالعودة إلى النظام التقليدي في القياس، لكن النظام المتري الجديد كان قد انتشر في كل أوربا بحلول منتصف القرن التاسع عشر.



تحرير اليهود:

قام نابليون بتحرير اليهود في فرنسا من الكثير من القيود المفروضة عليهم والتي كانت تحدد أماكن إقامتهم في الأحياء المخصصة لهم، وحقوق التملك والعبادة والتوظيف. وقد واجهت هذه السياسات معارضة وردود أفعال معادية لليهود في داخل فرنسا وفي عدد من الدول الأخرى، إلا إن

نابليون أصر عليها وكان يرى أن إعطاء الحقوق لليهود في فرنسا سيجذبهم إليها من بقية البلدان التي لا يتمتعون فيها بنفس الحقوق والمزايا مما سيفيد البلاد. وقد قال نابليون:

لن أقبل أبدًا أية مقترحات تجبر اليهود على مغادرة فرنسا، فعندي اليهود مثلهم كأي من المواطنين في بلادنا. فمن الضعف طردهم ومن الشجاعة ضمهم.

بشكل عام كان نابليون يُعتبر مفضلاً لليهود حتى أن الكنيسة الأرثوذكسية الروسية درجت على تلقيبه بمسيح دجّال متآمر مع اليهود ضد الديانة المسيحية، وعدوًا للرب.

أثناء حروب نابليون ضد الدولة العثمانية، وعندما استعصت عليه أسوار مدينة عكا في عام ١٧٩٩، قام بتجهيز إعلان لقيام دولة يهودية في فلسطين،ونشر بيانًا يدعو فيه كل يهود آسيا وأوربا للقدوم إلى القدس تحت الراية الفرنسية، وقال فيه:

«أيها الإسرائيليون، انهضوا، فهذه هي اللحظة المناسبة. إن فرنسا تقدم لكم يدها الآن حاملة إرث إسرائيل. سارعوا للمطالبة باستعادة مكانتكم بين شعوب العالم.»

ومع إن الأسباب الحقيقة لهذا الإعلان وحتى صحته محل خلاف عند بعض المؤرخين، إلا أنه محل اهتمام الحركة الصهيونية فهو يسبق وعد بلفور بسنوات كثيرة.



قانون نابليون:

يُنسب لنابليون الفضل في صدور القانون المدني الفرنسي الذي اقتبسته باقي الدول الأوربية التي غزاها، واستمرت سائرة عليه حتى بعد هزيمة

بونابرت ونفيه خارج أوربا. ومما قاله نابليون عن قانونه: إن فخري لا يجد مصدره في الأربعين معركة التي كسبتها في حياتي...فإن واترلو سوف تمحي ذكرى كثيراً من الانتصارات....لكن ما سوف يحيا إلى الأبد، هو قانوني المدني.لا يزال قانون نابليون اليوم مقتبسًا في ربع الأنظمة القضائية حول العالم، يُضاف إليه بعض التعديلات التي تلائم كل دولة ونظامها على حدى.يصف أحد المؤرخين الألمان هذا القانون على أنه قانون ثوري حفّز نموّ الطبقة البرجوازية في ألمانيا حتى أصبح المجتمع الألماني مجتمعًا برجوازيًا، وذلك عن طريق توسيعه وحمايته لحق الملكية الفردية ووضعه حداً للإقطاعية. وكان للتغييرات الإقليمية التي أجراها نابليون نتيجة لحروبه العديدة تأثير كبير في تاريخ أوربا الوسطى؛ لأنه ساعد على توحيد ألمانيا، فبعد أن كانت قبل نابليون تتألف من حوالي ثلاثمائة ولاية أصبحت في أيامه تتألف من ثمان وثلاثين ولاية فقط،وكذلك كان الحال مع إيطاليا،وقد ساعدت هذه التغييرات على تطوير الفكرة والنزعة القومية والدول القائمة على هذا المبدأ.

البونابرتية:

البونابرتية هي مصطلح مستخدم في تاريخ فرنسا السياسي، وهي ذات معنيين: المعنى الأول يُقصد به أولئك الذين أعادوا إحياء الإمبراطورية الفرنسية وتربّع آل بونابرت على عرش فرنسا، بما فيها أسرة نابليون الكورسيكية وسلالته المتمثلة بابن أخيه لويس الذي أصبح فيما بعد نابليون الثالث إمبراطور الإمبراطورية الفرنسية الثانية، وأول رئيس للجمهورية الفرنسية. وفي معنى أوسع، يُقصد بالبونابرتية حركة سياسية يمينية واسعة تدعو إلى قيام دولة مركزية مبنية على الشعوبية السياسية.

انتقاد نابليون:

قضى نابليون على حالة الفوضى والاضطراب التي كانت تعيشها فرنسا بعد انتهاء الثورة، الأمر الذي جعل منه شخصًا محبوبًا وبطلاً قوميًا في نظر الكثيرين، إلا أن معارضيه نظروا إليه على أنه طاغية ومغتصب للسلطة، وما زال نقّاد نابليون يقولون بأنه لم تكن لديه أية مشكلة في التضحية بآلاف بل بملايين الأشخاص في سبيل الوصول إلى الهدف الذي يبتغيه، وأنه في سعيه إلى السلطة المطلقة أشعل نار الحرب في أوربا وأجج النزاعات فيها متجاهلاً المعاهدات والاتفاقيات المبرمة بين تلك الدول وفرنسا وبينها في بعضها في سبيل الحفاظ على السلام. كذلك فإن الدور الذي لعبه في الثورة الهاييتية وقراره الهادف إلى إعادة نظام العبودية في مستعمرات فرنسا في أقاليم ما وراء البحار يسيء إلى سمعته كرجل دولة كبرى. هوجم نابليون أيضًا بسبب سماحه لجنوده بنهب المدن والبلاد التي دخلوها، فمتاحف فرنسا لا تزال غنية بالتحف والآثار التي غنمتها الجنود الفرنسيون في العديد من البلدان التي غزتها وأحضرتها إلى متحف اللوفر، الأمر الذي جعل منه متحفًا مركزيًا مهمًا؛ وقد أدى عمل بونابرت هذا إلى تقليد القادة اللاحقين له في غزواتهم، مما حرم الكثير من الدول من كنوزها القومية. وقد بلغ الحد ببعض المؤرخين، مثل پيتر جيل المؤرخ الهولندي، إلى مقارنة نابليون بالقائد النازي أدولف هتلر، وذلك في مقال له من سنة ١٩٤٧، وقد قال المؤرخ البريطاني دايڤيد كاندلر المختص بالحقبة البونابرتية في هذا التشبيه: ما كان يمكن أن يكون هناك تشبيه أكثر إهانة للأول وأكثر إطراءً للثاني.

يقول النقّاد أيضًا: إن الإرث الحقيقي الذي خلفه بونابرت هو فقدان فرنسا لهيبتها ومكانتها بين الدول العظمى الحضارية والموت غير المبرر لآلاف من الناس بفعل نزواته الشخصية. يقول المؤرخ ڤيكتور دايڤيس

هانسون: ...إن ما تقدمه الوثائق العسكرية لا يُمكن التشكيك فيه—١٧ سنة من الحروب المتواصلة نجم عنها حوالي ٦ ملايين قتيل، وإفلاس للخزينة الفرنسية، وفقدان الدولة لمستعمراتها ما وراء البحار. يُضيف البعض أن نابليون يمكن وصفه بالرجل الذي أعاد الحياة الاقتصادية في أوربا جيلاً كاملاً إلى الوراء بفعل التأثير المدمر لحروبه. يرد بعض المؤرخين على هذا الرأي بالقول إن تحميل بونابرت اللوم على كل ما حصل هو لمجرد أن تلك الحروب التي دارت رحاها في القارة الأوربية تحمل اسمه، في حين أنه في واقع الأمر، كانت فرنسا ضحية سلسلة من التحالفات الدولية التي هدفت إلى القضاء على المبادئ المثالية للثورة.

يقول بعض المنجمين: إن نابليون هو أحد أعداء المسيح الذين تنبأ بهم نوستراداموس، وما تزال تُعقد حاليًا بعض المؤتمرات النابلبونية الدولية التي يُساهم بها أعضاء من الجيش الفرنسي والأمريكي، بالإضافة إلى سياسيين فرنسيين وعدد من الباحثين من مختلف أنحاء العالم.



الخاتمة

البطاقة الشخصية لحياة الإمبراطور الحزين

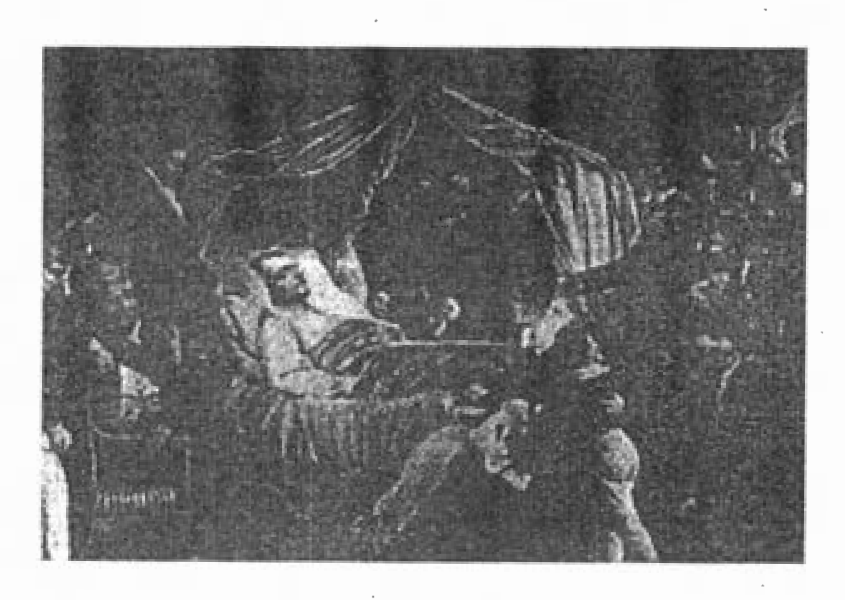
الاسم : نابليون بونابرت

فترة الحكم	١٨مايو ١٨٠٤ - ١١ أبريل ١٨١٤ ٢٠مارس ١٨١٥ - ٢٢ يونيو ١٨١٥
تاريخ التتويج	٢ديسمبر ١٨٠٤
الحاكم السابق	القناصلة الفرنسيون تقلّد هو بنفسه منصب القنصل الأول في الجمهورية الفرنسية الأولى. أما الحاكم الفرد السابق فكان لويس السادس عشر بوصفه ملكًا على فرنسا (١٧٩١-١٧٩٢)
الحاكم اللاحق	لويس الثامن عشر) بحكم القانون سنة ١٨١٤؛ وبوصفه ملكًا شرعيًا سنة ١٨١٥ (نابليون الثاني) بناءً على وصية والده سنة ١٨١٥)

ملك إيطاليا

فترة الحكم ١	١٧مارس ١٨٠٥ - ١١ أبريل ١٨١٤
تاريخ التتويج	٢٦مايو ١٨٠٥
الحاكم السابق ١	هو نفسه بصفته رئيس الجمهورية الإيطالية أما الملك السابق فكان كارلوس الخامس، إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة، المُتوّج في بولونيا سنة ١٥٣٠.
الحاكم اللاحق ١	تمّ حل المملكة ونُصب فرديناندو الثاني على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة وفيكتور عمانوئيل الثاني على عرش إيطاليا

الزوجة	جوزيفين آل بوارنيه
	ماري لويز أرشيدوقة بازما
الذرية	نابليون الثاني
الاسم الكامل	نابوليون كارلو بونابرت
العائلة الملكية	آل بونابرت
الأب	كارلو بونابرت
الأم	يتيسيا رامولينو
تاريخ الولادة	١٥ أغسطس ١٧٦٩
مكان الولادة	أجاكسيو، كورسيكا، المملكة الفرنسية
تاريخ الوفاة	٥ مايو ١٨٢١ (٥١ عامًا)
مكان الوفاة	لونكورود، جزيرة القديسة هيلانة، الإمبراطورية البريطانية
مكان الدفن	مجمّع المقام الوطني للمعوقين، باريس، فرنسا
الديانة	مسيحي روماني كاثوليكي
التوقيع	Napoleon



نابليون على فراش الموت

الفهرس